الفصل الرابع

# منتخبات من آثار جمال الدين الأفغانى

## ١ – فى ميدان الدين

### الأديان الثلاثة

يبحث جمال الدين فى هذا المقال فى شؤون الإنسان، وينظر إليها نظرة العالم المتبحر، ثم يعرض فى هذا السبيل من الآراء ما لا يصدر إلا عن ذهن ثاقب وعلم واسع فياض.

قال: أوّلُ نظْرةٍ نظرتُها إلى الكَوْن وأخفَقْتُ فيها، أننى وضَعْتُ الكُرَةَ الأرضيَّة بين يدىَّ، وقِسْتُها ببعض الأجْرام، فرأيتُ منها ما يكبرُ الأرضَ بمئاتِ الملايينِ من المرَّات، ثُمَّ تمعَّنتُ فيما حوَتْهُ من الحيوانِ النَّاطِق (الإنسان) فوَجَدْتُه لا يتجاوزُ الألْفَ وخمسمِئَة مليون تقريباً، وهو مِقْدارٌ زهيدٌ بالنسبَة لسطح الأرْض.

ثُمَّ افترضْتُ ذلك الجرْمَ الذى يكبرُ عن الأرض بمئتَىْ مليون مرَّة، وأن الرجلَ هناك يعيشُ ألفَ سَنة – وأنَّ ذلك الرّجلَ صاحبُ أراضٍ واسعةٍ فيه – وخُيلَ إلىَّ أنه يملكُ من الأراضى ما مساحتُها مساحةُ الكُرَةِ الأرضّية – وأنَّ أولادَه وأحفادَهُ، من الممكنِ أن يبلغَ عددُهم – إذا ازدَوَجَ بمئاتٍ من النساءِ معَ طولِ العُمْر – عددَ أهْلِ الأرضِ هذه أوْ ما يزيد! فإذا صحَّ معَ هذا الخيالِ أن تكونَ الأرضُ برمَّتِها ملكًا لرجل فى قرية من جرْم المرّيخ مثلاً ونَسْلُه عَدَدَ أهلِ الأرض – فهل يكونُ بين أهْل تلك القريةِ الذين هم أبناءُ رجلٍ واحدٍ – مثلُ ما هم عليه أهْل هذهِ الكُرَة من الاختلافات؟

أجابنى الخيال : كلا ، بل يكون كل أهل القرية آمنين مطمئنين ، لا تحاسد بينهم ولا هم يحزنون ، يغرسون ويزرعون ، ويجنون فيأكلون .

لا يعرفون للحرب معنى ، إذ لا ملك عليهم ، وليس بينهم أولو مطامع ، ملك شاسع واسع ، وخيرات مما يشتهون، يعبدون مع أبيهم صاحب القرية، إلهًا واحداً خالق الكل ومبدع الكائنات .

ثم رجعتُ لأهل جرم الأرض ، وبحثتُ فى أهم ما فيه يختلفون ! فوجدته ( الدين ) فأخذتُ الأديان الثلاثة : وبحثتُ فيها بحثًا دقيقًا مجرداً عن كل تقليد ، منصرفًا عن كل تقيُّد ، مطلقًا للعقل سراحه .

فوجدتُ بعد كل بحث وتنقيب وإمعان : أن الأديان الثلاثة ، الموسوية ، والعيسوية ، والمحمدية ، على تمام الاتفاق فى المبدأ والغاية .

وإذا نقص فى الواحدة شىء من أوامر الخير المطلق ، استكملته الثانية .

وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا فى الطغيان ، أو أساءت الكهان فهم الناموس أو نقصوا من جوهره أتاهم رسول بأرفاد وتأييد ، فأكمل لهم ما نقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه .

وعلى هذا لاح لى بارقُ أملٍ كبير — أن يتحد أهلُ الأديان الثلاثة ، مثل ما اتحدت الأديان فى جوهرها وأصلها وغايتها — وأن بهذا الاتحاد يكونُ البشرُ قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة فى هذه الحياة القصيرة .

وأخذتُ أضعُ لنظرتى هذه خططًا ، وأخط أسطراً ، وأحبرُ رسائل الدعوة — كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب — ولا تعمقتُ فى أسباب اختلاف — حتى أهل الدين الواحد — وتفرقهم فرقًا ، وشيعًا وطوائف !

ولكن لما علمتُ أن دون اتحاد أهل الأديان ، تلك الهوات العميقة

وأولئك المرازبة الذين جعلوا كلّ فرقة بمنزلة (حانوت) وكلّ طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضّة ، ورأس مال تلك التجارات ، ما أحدثوه من الاختلافات الدينيّة ، والطائفية والمذهبيّة ، على حدّ قول الشاعر :

قد يفتتحُ المرءُ حانوتًا لمتجره ... وقد فتحتَ لكَ الحانوتَ فى الدينِ
صيّرتَ دينكَ شاهينا تصيدُ به ... وليسَ تُفلحُ أصحابُ الشّواهين

علمتُ أن أىّ رجل يجسرُ على مقاومةِ التفرقة ، ونبْذ الاختلاف ، وإنارة أفكارِ الخلق ، بلزوم الائتلاف ، رجوعًا إلى أصول الدين الحقة — فذلك الرجل، هو هو يكون عندهم، قاطعُ أرزاق المتّجرين فى الدين — وهو هو فى عُرْفهم ، الكافرُ الجاحد ، المارق ، المخردق ، المهرتق ، المفرق الخ .

ولمّا انتهى بى العلمُ إلى ذلك الحدّ ، انقلبتْ أفراحى بالخيال أتراحًا ، ورجعتُ عن نظريّتى ، والخيبةُ ملء إهابى وجُبّتى .

ثم جمعتُ ما تفرّق من الفكر ولمت شَعْثَ التصور ، ونظرتُ إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان — وهى أولُ أرض مسّ جسمى ترابها — ثمّ الهند وفيها تثقّفَ عقلى — فإيران بحكم الجوار والرّوابط ، وإليها كنتُ صرفتُ بعضَ همّتى ،فجزيرة العرب من حجاز مهبطِ الوحى ،ومشرقِ أنوارِ الحضارة — ومن يمن وتبابعتها وأقيال حِمْيرَ فيها — ونجد ، وعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها — والشام ودهاة الأمويين فيها — والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كلّ صقْع ودولة من دولِ الإسْلاَم فى الشرق وما آل إليه أمْرهُم فيه اليوم .

« فالشرق ! الشرق ! وقد خصصتُ جهازَ دماغى لتشخيصِ دائه وتحرّى دوائِه— فوجدتُ أقْتَلَ أدوائه — وما يعترضُ فى سبيلِ توحيدِ الكلمة فيه— داءَ انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتّفقوا ولا تقومُ على هذا لقومٍ قائمة » .

* * *

الناسُ تجاهَ الأديان الثلاثةَ —الموسويّة والعيسويّة والمحمّديّة وكتبها— لابُدّ

obeikandi.com

أن يكونوا أحدَ رجلَيْن — إمّا رجلٌ يعتقدُ أنّ رجالَ الأديانِ الثلاثة قد أرسلَهم الله وأوحى إليهم بالتوراةِ والإنجيلِ والقرآن — والقصدُ من إرسالهم ، إرشادُ الخلْق إلى الحقّ ، وهدايتُهم إلى الصراطِ المستقيم فى الأمورِ التعبُّدية — ومن بيانِ الحلالِ والحرام ، وصون مصالح العباد بما شرَعَهُ لهم من الشَّريعة ، وإلزامهم العملَ بها — وبالإجمال — بيان مشيئةِ الله بما يريدُه من خلقِه ، وما يريدُ أن تكونَ خليقتُه عليه .

وعلى هذا فلا يمكنُ أن يكونَ قصدُ الله إلاّ واحداً ، ومشيئته إلاّ واحدة — وكتب الوحى ، وما أنزلَه على الرُّسُل — لا بُدَّ أن تكونَ متفقة فى المقصدِ والغاية ، ولا يصحُّ التباينُ فى جوهرِها ، ولا أن يخالف بعضُها بعضًا .

فلننظرْ إلى الأمرِ الرئيسى الذى جاء فى التوراةِ من أمْرِ العبادة ، وما أرادَهُ الله من عبادِه هناك — فنرى أنّ اللهَ قد نادى موسى من جانبِ الطُّور وكلّمه قائلاً :

« إنّى أنا الله لا ربَّ سواى فاعْبُدْنى أنتَ وبنى إسرائيل »

ومختصرُ ما ورد فيها أنّ طاعةَ الله وعبادتَه ، والعملَ بما يبلّغه الرَّسُول — كل ذلك له فى الآخرةِ ثوابٌ وسعادةٌ سرمديّة — فضلاً عن عاجلةِ الدُّنيا .

والإنسان بسَوق الحبِّ الذّاتى — لا يريدُ ولا يحبُّ أن يعتقد أنه سيذهبُ سدًى — بعد الموت — لأنّ الاعتقادَ بذلك مزعجٌ للنَّفْس ، مقبضٌ للرُّوح ، فهو يرجو بعد الفناء الظاهرىّ ، أن يُبعثَ ويكونَ له معادٌ ، وأن يحيا حياةً أبديّة .

— ثم لننظر ما جاء فى الإنجيل — وما قالَهُ المسيحُ فنرى أنّه قال بما معناه :

« أعطيتَنى سلطانًا على كلّ جَسد لأعطى حياةً أبديّة لكلّ من أعطيته : وهذه الحياة الأبديّة — أن يعرفوك أنت الإله الحقيقىّ وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلْتَه[1] » .

---

(١) ٢ و ١٧/٣ إنجيل يوحنا — محمود أبو ريه .

فالعيسويّةُ هي ناموسٌ جاءَ متمّماً مكمّلاً لما قبلهُ من التوراة — كما قال المسيح .

« جئتُ لأتمّ النّاموس لا لأنقضه » « إلخ

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية — نرى القرآنَ مشحوناً بتوحيدِ الله ، ولزومِ طاعتهِ وعبادتهِ ، بقوله «وماخلقت الجنّ والإنسَ إلا ليَعبدُون — قل إنما أمرْتُ أن أعبُدَ الله ولا أشرك به — والحمد لله ربِّ العالمين — إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين » . .

هكذا نرى الأديانَ الثلاثة متفقةً في الأمورِ التعبّديّة بلا أدنى تباين أو تخالف .

ثم ننظرُ في المعاملات ، وما أجيز منها في تلك الأديان ، وما نهى عنه فيها ، نرى أن ما جاءَ به موسى ، أوما أمره الله به من الوصايا قد عمل بها المسيحُ ولم ينقض أو ينقص منها شيئاً .

وكذلك محمد — فإنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوْراةِ والإنجيل .

— قلنا — إنّ الناس تجاهَ الأديان الثلاثة وكُتُبِها — أحد رجلين : رجل يعتقد بالوحي ، ويؤمنُ بالأنبياء والرُّسُل — ورجلٌ يجحَدُ الوحيَ ، ولا يؤمِنُ بالأنبياء ولا بإرسالهم من عند الله .

أما الرجلُ المؤمن — فقد بحث ودقّق ، وطبّقَ كلّ الأديانِ الثلاثة بعضها على بعض — كما مرّ — فلم يجد فيها أيّ تباينٍ — بل وجدها متفقةً في المقصد والغاية .

وأمّا الرجلُ الكافر ، ومنكر الوحي — فيقول : إنّ الكونَ مع حوادثه من حيث حقيقتُهما ليس فيهما شيءٌ جديد .

وما نراه جديداً فإنما هو في شكل الإبراز ، وصورة الإلقاء والتلقّي ، فيأتي في قرن من القرون أولو بصيرة ولبّ ودهاء ، فيعلّمون تعليماً بشكل خاص ، وصور معلومة عندهم — تأخذُ من نفوسِ الخلْق كلّ مأخذ ، ويتعهّدُ لها

إذا وضعت فى شكل تعبدى ، أو يعمل بها إذا أفرغتْ فى قالب تعليمى .

فالتعليمُ بتوحيدِ الله وتقديسه معروفٌ عند قدماءالمصريين قبل موسى بأجيال .

والتثليثُ من تعاليم الوثنيين ! وقد قالَ به فيثاغورس الفيلسوف اليونانى قبل المسيحِ بخمسمئةِ عام ! وإنَّ موسى وعيسى ومحمداً، هم رجالٌ عقلاءُ حكماء امتازوا عن وسطهم ، وجمعوا من معتقداتِ الأقدمين — قواعد وأقوالاً — وضعوها فى كتب — لا تُعْقَلُ أن تكونَ من إله السماء !

ويقولُ ذلك المنكر : إنه لو سلمنا أن فى كتب الأديان شيئاً من النفع ، فهو لا يوازى مضارَّ ما نراه بين أهل الدينِ نفسه ، والأديان من الاختلافِ والتنافُر ، والمشاحنة والبغضاء! ولو كانت من الإله حقيقةً — لجعلهم أن يتفقوا عليها ولا يختلفوا — ثم يستحيل أن يكون فيها ما يرى من الخرافات !

— هذا غايةُ ما عند الجاحدِ المنكر من القول والحجاج ، والمطلوب منه فى موضوعنا هنا — ليس الإيمان بالوحى وبالأنبياء — بل — إذا كانت كتبُ الأديان الثلاثة متفقةً فى التعاليم الجوهرية ، وفى المقصد والغاية ، أم لا ؟

أمَّا اتفاقُها وعدمُ تخالفِها — فقد ثبت — ولا يستطيع أحد جَحْدَه وإنكارَه .

وأمَّا ما يراه المنكر — ونراه نحن كذلك من اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها ، ولا أثر له فى كتبها — وإنما هو من صنعِ بعضِ رؤساء هذه الأديان الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً — ساء ما يفعلون .

رؤساء الأديان — وما أنفعهم إذا صلحوا — وما أضرَّهم إذا فسدوا ، فالأديانُ فى أصْلها وجوهرِها — وازعٌ عظيم ، ودواءٌ نافعٌ مفيد لكثير من أمراضِ البشر — هذا إذا أحْسنَ الأطباء (وهم هنا رؤساء الأديان) عدمَ خلطِ ذلك الدواء ، بالضار من الأجزاء ، وراعوا قابليَّة العقول قبْلَ الأجسام وأعطَوْها منه بقدر معلوم ، بقول مفهوم — وبيان معقول .

* * *

وكان بعض الباحثين قد أخذ على السيد قوله : إن أصول الأديان واحدة ، وسأله عن أمر التصوف فأجاب السيد بما يأتى :

قال : إنَّ أمْرَ التّصوُّف لم يكن فى المسلمينَ فقط — بل رجال أديانِ الكتبِ السماوية كانوا على حقيقة من التصوف فى المعنى — واختلاف فى صورةِ الألفاظ ، وشكل الإلقاء أو الفهم الذى يريدهُ الرئيس أو المسيطر — أن يحرر به المعنى على حسبِ ما يرتئيه نافعًا ومفيداً وموافقًا للغرض فى حينه .

فآياتُ التصوُّف فى التَّوراة أكثر إغلاقًا ممَّا فى الإنجيل ، مثل قوله ( إسرائيل ابنى البكر ) ، فاليهودُ مع وجودِ هذهِ الآية فى التوراة — ما ذهبتْ ولا اعتقدتْ أن الإله له ابن ، أو يجوزُ عليه ما يجوزُ على البشر من أشكال التَّناسُل ، والولادة أو الزوجة والولد .

ومثلُ هذه الكلماتِ والأقوال — لا يَسَعُنَا إلاَّ أن نقول إنها ( تصوُّف ) أو ألفاظٌ لمعانٍ ، حقيقتُها غيرُ ظاهرِ ألفاظِها .

وكثيراً ما تأتى أقوال المتصوفة على صورة من الإبهام — بالنسبة لبُعد ما بين منظورهم بالبصيرة ، والحسّ الرُّوحى وبين ما يُرَى من الاشياء المحسوسة ولها قوالب ألفاظ مألوفة تدلُّ على معناها — بعكس المرئى والمشاهد فى الحسّ الرّوحىّ ومواجد أهلِ التصوُّف الذوقية ، التى يقصرُ ما لدينا من الألفاظِ عن تصوُّرِها والدّلالة عليها .

فالتصوُّف يجب أن نفهمه — إنه مذهبُ حكماءَ وعقلاء « ترَّيضُوا » أى هذّبت ، ولطفت جسمانهم الرياضة وكثرَ منهم النظرُ فى الأشياء ، والتطلع إلى حقائقِها وفَهْمِ كُنْهِها عن طريق ( الحسّ الرُّوحى ) والانفعال فى النفس المتعلقة فى الجسم مؤقتًا ، فهم فيما كانوا يَرَوْن ويقولون فى مواجدِهم ومشاهدِهم وذوقِهم — إمَّا أن يراه من كان فى غير طبقتِهمْ — غير معقول وغير مفهوم — وإمَّا أنْ يسىء فهْمَ معناها إذا أخذَهُ على ظاهرِ لفظه .

# أساس تعليم المسيح والغاية من مجيئه

كان السيد وهو يتكلم فى التصوف وفى أن الأديان الثلاثة متفقة فى المقصد والغاية – وأن غرضها تعليم التوحيد ، وأن تعمل لخير الإنسان فى حفل حاشد فى بيته فقال له طبيب موسوى :

إن النصرانية لا تعلم التوحيد بل أساسها قائم على التثليث – بعكس الموسوية والإسلام – والإنجيل طافح بمثل أقوال المسيح ( أنا فى الآب والآب فى ، ومثل قوله : أيها الأب مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً ، فقال جمال الدين :

إن المسيحَ ( ص ع ) وضع أساسَ تعليمِه والغاية من مجيئِه أن يكمل الناموسَ ، لا أن ينقضَه ، وناموس موسى بُنِى على التَّوْحِيد فلا يصحّ نقض هذا الأساس – وإن وَرَدَ فى بعضِ الأقوال ما يخالفُ فى ظاهره ذلك الأساس – وجبَ الرُّجوعُ إلى التَّأويل – كما قدّمنا – وأن لا نرمىَ أىَّ دين بالضّعف والوَهَن .

وأمَّا أمثالُ قولِ المسيح ، أنا فى الآب والآب فىّ » فقد ورد عنه قوله ( أبى وأبيكم – وكلهم أبناء الله يُدْعَوْن » وفى التوراة – كما ذكرنا جاء « إسرائيل ابنى البكر » وهذه الأقوال كلها تصوّف محض .

ووَرَدَ فى كلام أهل التصوُّف من المسلمين أقوالٌ مُغْلَقَة . .

يقول الشيخ الأكبر [1] فى بعض صلواته « اللهمَّ يا من ليس حجابُه إلاَّ النور ، ولا خَفاؤه إلاّ شدَّةَ الظهور ، أسألك بك فى مرتبةِ إطلاقك عن كلّ تقييد التى تفعل فيها ما تشاء وتريد ، وبكشْفِك عن ذاتك بالعلم النورىّ ، وتحوّلك فى صورِ أسمائك وصفاتك بالوجود الصورى .

ويقول السيد البكرى : نِعْمَ العبْدُ الذى به كمالُ الكمال ، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ، ولا اتصال ولا انفصال .

ترونَ من هذه الكلماتِ المتناقضة ظاهراً – إنما أراد نفى الحلولِ الذّاتى

---

( ١ ) هو محيى الدين بن عربى .

فأتى لذلك بنفى الحلولِ أوّلاً – وإلاّ كيف يعقل لو بقينا على مفهومِ الظاهر من معنى الكلمات – أن المتصل فى الوقتِ ذاتِه يكون منفصلاً .

فمعانى التصوُّف – وإن كانت مغلقةً فى الغالبِ لا يفهمها إلاّ أصْحابُ الذوق والمواجد – ويعسرُ على غيرهم تناولُ فهمها – فلا بأس من التقريب بالتأويل لينتفى غيرُ المعقول .

وخير مثال يقرّب للعقلِ المفهوم فى مثل هذه الحال والأقوال ( المرآة ) التى تمثل الشىء تمامًا فيُفْتح بهذا المثلِ بعض مغلقاتِ ما ذكر من كلام المتصوّفة .

فإذا قابلت المرآةُ الشمس – رأيتها فى المرآة ولا يعترى الإنسان أدنى شبهة إنها ( الشمس ) على غير طريقةِ الحلولِ فى المرآة ، ولا على صورةِ الاتحّاد أو الاتّصال أو الانفصال .

وحقيقةُ ذلك المرئىّ من الشمس ، إنما تجلى فى المرآة ( لشفافيتها ) وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة – على غير حلول ، ولا ولا إلخ

وإذا علمنا أنّ تجلى الشمسِ فى المرآة حصل لشفافيتها – هكذا تجلى الذات فى خلقه عندما تتلطفُ الكثافة الترابية الجسمانية ، وتشفُّ الرُّوح وتتمكن – من اتصالها بعالمها – ترى مِنَ الذوق فى الشهود – ما لا يسعُهُ إلاّ التعبير بالمتناقضات ظاهراً كما تقدم – وليس ثمة تناقض .

وكلامُ المسيح ( ص . ع ) إن هو إلاّ غاية فى التصوُّف – ولا يصحّ حملُهُ أو فهمُهُ على صورتِه الظاهرية – وإلاّ لا نتقض أساسُ النّاموس الموسوى – الذى إنما أتى ( أى المسيح ) ليتممه فلا يصحّ أن تنزل التوراة على موسى من عند الله ( بالتوحيد ) وينزل الإنجيل من عندِ الله على عيسى بالتثليث .

وصريحُ أقوال المسيح فى جوهرِ الاعتقاد أكبرُ دليل على صّحةِ ما نقول من أن الأديان الثلاثةَ متفقةٌ فى المقصدِ والغاية .

# التعصب الدينى

كان جمال الدين مصلحاً واسع الأفق يريد الخير والإصلاح لأمة الإسلام وكان فى دعوته مثال الرجل السمح الذى يمقت التعصب ، وفى مقاله هذا ما يدل على تلك النفس الصافية السامية :

. . . إن الدّين أوّل معلم وأرشدُ أستاذ وأهدى قائد للأنفُس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحمُ مؤدّب ، وأبصرُ مروض يطبعُ الأرواحَ على الآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة ، ويُقيمُها على جادّة العَدْل ، وينبه فيها حاسة الشفقة خصُوصًا دينُ الإسلام . فهو الذى رفع أمةً كانت من أعرق الأمم فى التوحش والقَسْوَة والخشونة ، وسما بها إلى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدّة ، وهى الأمة العربية .

## التغالى فى التعصب الدينى

قد يطرأ على التعصُّب الدينىّ من التغالى والإفراط مثلُ ما يعرض على التعصُّب الجنسىّ ، فيفضى إلى ظلم وجَوْر ، بل ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ، ومحْوِ وجودهم ، وكما قامت الأمم الغربية فاندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتح والإبادة ، لا للفتح ولا للدَّعْوَة إلى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصّليب ، وكما فعل الإسبانيوليون بمسلمى الأندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك فى بداية ما حصلت الشوكةُ للدين المسيحى — إلاّ أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلّما تمتدّ له مدةً ، ثم يرجعُ أربابُ الدين إلى أصوله على قواعد السّلم والرّحمة .

## تعصب بعض طوائف أهل الدين الإسلامى

أمّا أهلُ الدين الإسلامى فمنهم طوائفُ شطّت فى بعضها فى الأجيال الماضية إلاّ أنه لم يصِلْ بهم الإفراط إلى حدّ يقصدون فيه الأبادَة وإخلاءَ الأرضِ من مخالفيهم فى دينهم — . ولنا الدّليلُ الأقوْمُ على ما نقولُ وهو

وجودُ الملل المختلفة فى ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم (أن) تسلّطوا وهم فى عنفوان القوة ، وهى فى وَهَن الضَّعْف .

نعم كان للمسلمينَ وَلَعٌ بتوسيع المماليك ، وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدّة على من يعارضهم فى سُلْطانهم ، إلاّ أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حُرْمَةَ الأديان ويرعَوْن حقَّ الذمّة ؛ ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم « أن من رضى بذمّتنا فله ما لنا وعليه ما علينا » ولم يعدلوا فى معاملتهم عن أمر الله فى قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) ، اللهم إلا ما لا تخلوا عنه الطبائع البشرية .

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علوّ الرتبة ، وارتفاع المكانة — وقد سما فى دُوَل المسلمين — على اختلافها إلى المراتب العالية كثيرٌ من أرباب الأديان المختلفة . وكان ذلك فى شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان . وفى الظنّ أن الأممَ الغربية لم تبلغ هذه الدرجةَ من العدل إلى اليوم (فسُحقا لقوم يظنون أن المسلمين بتعصّبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم) . . .

## الاعتدال فى أصول الأخلاق والفضائل ، إنما يكون بالدين

يُرْشِدُنا رائدُ الحق إلى أن الاعتدالَ فى أصول الأخلاق والتحلى بحلية الفضائل وترويض القُوى والآلات البدنية على العمَل بآثارها إنما يكونُ (بالدين) ، ولن يتم أثر الدّين فى نفوس الآخذين به فيصيبوا حظّاً وافراً مما يرشد إليه فيتمتعوا بحياة طيبة ، وعيشة مرضيّة ، إلا إذا قام رؤساءُ الدين وحَمَلَتُه وحَفَظَتُه بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه ، وتثبيتها فى العقول ، ودَعْوة الناس إلى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير السّاهين عن هَدْيها .

أمّا إذا أهمل خَدَمَةُ العلم وظائفهم ، أو تهاونوا فى تأدية أعمالها ، ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت

البصائر بالغفلة، وتحكمت الشهوات البهيمية — وتسلّطت الحاجات المعيشية ، ومال ميزانُ الاختيار مع الهوى، فحشدت إلى الأنفس أوفاد الرذائل، فيحقّ على الناس كلمةُ العذاب ؛ ويحلّ بهم الشقاء .

## الجنسية والديانة الإسلامية

وفى هذا المقال أيضاً يعلو جمال الدين بالأمة الإسلامية عن الحدود الضيقة العصبية فيقول :

. . . لم تكن أصولُ الدين الإسلامى قاصرة على دعوةِ الخلْق إلى الحقّ ، وملاحظةِ أصول النفوسِ من جهةِ كونها ، روحانيةً مطلوبة فى هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى — بل هى كما كانت كافلةً لهذا ، جاءت وافيةً بوضع حُدُود المعاملات بين العباد ، وبيانِ الحقوق كليّها وجزئيها وتحديدِ السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها حتى لا يكون القابضُ على زِمامِها إلاّ من أشدّ الناس خضوعاً لها ، ولا ينالَها بوراثة ولا امتياز فى جنسٍ أو قبيلةٍ ،أو قوةٍ بدنية ، أو ثروةٍ مالية — وإنما ينالُها بالوقوفِ عند أحكام الشريعة والقدرةِ على تنفيذها ورضا الأمة، فيكون وازعُ المسلمين فى الحقيقة شريعتَهم المقدّسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرَصَهُمْ على حفظِ الشريعة والدفاع عنها .

وكلُّ فخار تكسبه الأنساب ، وكلُّ امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارعُ أثراً فى وقايةِ الحقوق ، وحمايةِ الأرواح والأموال والأعراض .

قال صلّى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتلَ على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » والأحاديث النبوية والآياتُ المنزلة متضافرةٌ على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام — من يفوق الكافة فى التقوى قال تعالى « إنّ أكرمَكم عند الله أتْقاكم » .

ومن ثم قامَ بأمرِ المسلمين فى كثير من الأزمان ، على اختلافِ الأجيال من لا شرَفَ فى جنسِه ، ولا امتيازَ له فى قبيله ، ولا ورِثَ المالَ عن آبائـه ، ولا طـلَبَه بشىء من حسَبِه ونَسَبِه ، وما رفعَه إلى منصَّة الحكم إلا خضوعُه للشَّرْع وعنايته بالمحافظة عليه .

المسلمون مطالبون بالمحافظة على ما يدخل فى ملكهم

المسلمون بحكم شريعتـِهم ونصوصِها الصريحة، مطـالبُون عند الله بالمحافظةِ على ما يدخلُ فى ملكِهِم وولايتِهم — من البلدان — وكلهم مأمورٌ بذلك ، لا فرقَ بين قَريبِهم وبعيدِهم ، ولا بينَ المتَّحدين فى الجنس ، ولا المختلفين فيه — وهو فرضُ عين على كل واحد منهم — إن لم يقم قومٌ بالحمايةِ عن حَوْزتهم — كان على الجميع أعظمُ الآثام ، ومن فروضِهم فى سبيل الحماية ، وحفظِ الولاية ، بذلُ الأرواح والأموال ، وركوبُ كل صعب ، واقتحام كلِّ خطْب — ولا يُباحُ لهم المسالمةُ مع من يغالبهم ،فى حال من الأحوال — حتى ينالوا الولايةَ خاصةً لهم دون غيرهم .

## ٢ — فى ميدان السياسة

## الحكومة الاستبدادية (١)

لما أخرج السيد جمال الدين من الآستانة مرغماً فى زيارته الأولى لها — بكيد رجال الدين فيها وجاء إلى مصر يحمل فى نفسه المتقدة غضباً ومقتاً وبخاصة مما رآه هناك من بغى وظلم وغدر الحكم الإستبدادى الذى كان يسود البلاد حينئذ ، انبرى قلمه البليغ فحبر هذه المقالة الرائعة التى لم يكتب مثلها فى وصف الحكومات الاستبدادية ولنفاستها وفلسفتها وعلو أسلوبها رأينا أن نأتى بها هنا على طولها إلا قليلا منها ،ولا غرو فإن السيد قد قضى حياته كلها يحارب — فيما يحارب الظلم والطغيان فى أى مكان وكان دائما يسعى إلى الحكومة الجمهورية .

إنَّ طولَ مكْثِ الشرقيين تحت نِير المستبدين الذين كان اختلافُ أهوائهم الناشىءُ عن تضادِّ طبائِعهم ، وسوء تربيتِهم مع عدم وجود رادع

(١) عن العدد ٣٣ من جريدة مصر الصادرة فى مدينة الإسكندرية فى ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦هـ (٦ فبراير سنة ١٨٧٩ م) .

يردعهم ، ومانع يمنعهم ، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم – سببًا أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم ، والتغير في فطرتهم الإنسانية حتى كادوا لا يميزون بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة ، والقدرة الكاملة ، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة ، والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات ، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات – وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق ، بل تستدعي التنزل إلى الرتبة الحيوانية – ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان ، وتعلمه بواجباته ، وما يلزمه في معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية ، وتمكنه من دفعها والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول ، وسخف الرأي ، والجد في اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبدًا[1] .

مزايا الحكم الجمهوري

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بين شرق في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية[2] ، وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها ، وأن المسوسين بها أعلى شأنًا ، وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم ، فإن الإنسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل ، الذي رضيه لنفسه ، يحدد به حركاته وسكناته ، ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية ، وتصده عن أن يرقم على صفحات

---

(١) استعمال استبدل هنا على غير ما في الكتاب العزيز لأن الباء بعد استبدل تدخل على المتروك.

(٢) هذا أوضح دليل على أن السيد جمال الدين كان يسعى إلى الحكومة الجمهورية . وهو أول من دعا إلى ذلك

الأوراق ما يكشفُ عن ماهية الحكومة المقيَّدة ويوضحُ عن فوائدها وثمراتها، ويبين أن المحكومين بها قدهزّتهم الفطْرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية، والترقى إلى أوّل درجات الكمال، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومةُ المطلقةُ، وتطلبُ مشاركةَ أولى أمرهم فى آرائهم وكبح شرَه النهمين منهم، الطالبين للاستئثار بالسَّعادة دون غيرهم — ولهذا أضربنا صفحًا عن ذكرها وأردنا أن نذكر فى مقالنا هذا — الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

إنّ الحكومةَ الاستبدادية باعتبار عناصرها الذّاتية، وأقانيمها الحقيقية التى هى عبارةٌ عن : أمير، أو سلطان ووزراء، ومأمورى إدارة وجباية ستنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) منها — الحكومةُ القاسية وهى التى تكونُ أركانها — مع — اتسامهم بسمة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية — شبيهةٌ بقطّاع الطريق، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة، ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التى تقيهم الحرّ والبرد وسائر مواد حياتهم — ويتركهم فى البوادى والقفار حُفاةً عُراةً جياعًا، تقطعت بهم حبال الوسائل، ولا يلاحظ أن فيهم الهَرِم والصَّغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعونَ التخلص من المهالك، ولا يقتدرون على النجاة، ولا يبالى بموتهم وهلاكهم عن آخرهم، ولا تأخذه فى ذلك الشفقة والرحمة.

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبونَ ضياعَ رعاياهم وعقاراتهم، ويستولون على مساكنهم وبساتينهم، وينتزعونَ بالضَّرْب والحبْس والكىّ وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهمْ من ثمرات اكتسابهم، ويدّعُونَهم فى مخالب المصائب مُعرَّضين للأسْقام والآلام، وأهدافًا لسهام البلايا التى ترميهم بها عواصفُ الرياح الزمهريرية والسَّموم، ولا يخشون اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية ومحق حياتهم بالمرة[1] بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ولا يشعرون أنهم قوّاد

(١) قيل لحاكم شرق : إن رعيتك يموتون فى عمل السخرة الفلانى الذى كلفتهم إياه، فلو رفقت بهم ؟ فقال « وهل نحن تسلمناهم بالعدد فنخشى أن ينقصوا » ! .

السلطة وأساسها ، ومن أفراد هذا القسم الحكومةُ التيمورية والتترية وغيرهما . كما تشهد بذلك التواريخُ .

(القسم الثانى) الحكومةُ الظالمة ، وأولياء هذه الحكومةِ تماثلُ الاخساء والمترفين ، الذين يستعبدونَ أناساً خُلِقُوا أحراراً — فكما أنَّهم يكلفون عبيدَهم بأعمال شاقة ، وأفعال متعبة ، ويجبرونهم على نقرِ الأحجار ، وخوض البحار — وطى المفاوز وجَوْبِ البلاد فى صرَّة الشتاء وهجير الصيف ، ويؤلمون أبدانهم بالسياط إذا لجأوا آناما إلى الراحة التى تجلبهم الطبيعة إليها — ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيامِ حياة هؤلاء المظلومين — عن مزايا جواهرِ عقولهم المقدَّسة حيث لا يجدون فرصةً من دهرهم للنظر فى الآفاق ومن أنفسهم ، كى يرتقوا من الإحساس البهيمى ، إلى عرش الإدراك الإنسانى ، ويشاركوا أبناء جنسهم فى اللذائذِ الروحية ، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤا زروهم بنتائجها من الصنائع البديعة ، والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعَداء ، ومع ذلك يحرسون حياتَهم ويحرصونَ على استيفائها استبقاءً للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يقتات به لسد الرَّمَق ، وثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفارِ العواصف ، وبرائن القواصف ، فلا يكونُ حالُهم مع سادتِهم إلاَّ كحال البهائم والأنعام الأهلية ! لا يعيشون إلاَّ لغيرهم ، ولا يتحرَّكون إلاَّ برضاه ، بل بمنزلةِ آلة غير شاعرة بأيدى مستعبديهم يستعملونَهم كما يشاءون .

كذلك هؤلاء الولاةُ مع رعاياهم ، فإن الرَّعايا لا يزالونَ يتحمَّلُون المتاعب والأوصاب ويكدّون أيام سِنيّهم ، ويسهرون لياليها مشتغلين بلا فتور بالغَرْس والحَرْث ، والحصْد والدَّرْس ، والندف والحلج ، والغزْل والنَّسجْ ، مهتمين بالحدادة والنجارة والملاحة والتجارة ساعينَ فى حفْر الأنهر وإنباع المياه ، وإنشاء الجداولِ والجُسورِ متكبدين آلام التغريب فى الحر المبيد والبرد المميت ، كى ينالوا (أى الحكام) أرْغَدَ العيشِ بطيبِ المطعَم والمشرَب والملبس والمسكَن ، ويحوزوا الراحة والرفاهة والحظ والسعادة — وهؤلاء

الظَّلَمَةُ لا يفترون عن السعي فى سَلْب ما بأيديهم جبراً ، وغصب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغماً . . .

ومن أقسام هذه الحكومة غالبُ حكوماتِ الشرقيين فى الأزمانِ الغابرة والأوقات الحاضرة ، وكذلك أكثر حكوماتِ الغربيين فى الدُّهور الماضية . . .

القسم الثالث ــ الحكومةُ الرحيمة وهى تنقسم إلى قسمين :

القسمُ الأولُ منها الحكومةُ الجاهلة ، ودعائمُ هذه الحكومة تحاكى الأب الرحيم الجاهل ــ يحث أبناءه على اقتناء الأموال واكتسابِ الثروة واستحصال السعادة والاقتصاد فى المعيشة بدون أن يتبين طرقها ويمهد لهم سُبلَها لعدم علمه بها . . .

القسم الثانى منها الحكومةُ العالمة وقد قسمها إلى قسمين ، شبَّه القسمَ الأول بالأب العالم المأفون وأطال فى وصفها ثم تكلم عن القسم الثانى من هذه الحكومة وسماها الحكومة ( المتنطسة ) ، وأساطينُها الحُكماء وقال إنها تضارعُ الأبَ المتدبر المتبصر الذى لا يبرحُ ساعياً فى إعداد الأسباب الموجِبةِ لسعادةِ أبنائه .

ونجدُ هؤلاءِ الحكماءَ الأساطين يعلَمونَ أنَّ قِوامَ المملكةِ وحياةَ الرَّعايا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرِفُونَ أنَّ كمالَ هذهِ الأمورِ وإتقانها لا يكونانِ إلاَّ بأمرَين :

أحَدُهما ــ وهو فى الواقع عِلَّتهُما ــ

الأول : العلومُ الحقيقية النافِعة والفُنونُ المفيدة . .

وثانيها : إعْدادُ آلاتِ الزراعة وأدواتِ الصّناعة وتسهيلُ طُرُقِ التجارة البرية والبحرية ، ويفقَهُونَ أنَّ حِفْظَ أساسِ المدنية وصَوْنَ نظام المعاملات وفَصْلَ المنازعات . . لا يكونُ إلاَّ بالسياسة المؤسَّسَة على دعائم العَدْل والإنْصاف . . .

ويقرونَ بأنَّ استكمالَ سعادةِ المملكةِ وصيانةَ استقلالِها لا يكونانِ إلاَّ بارتباطاتِها السياسية وعلائِقها التجارية مع الممالكِ الأخرى ولا يتمُّ ذلك

إلاّ برجال عارفين ، دهاة متبصرين محبين لأوطانِهم . . محنّكين بالسياسة ، عالمين بالحوادثِ قبل ظهورِها . .

إلى الإنسان الشرقى :

وبعد أن أفاض السيد فى بيان ما يجب أن تكون على الحكومة العادلة ، وجه خطابه إلى الإنسان الشرقى فقال :

يا أيُّها الإنسانُ الشَّرقىّ، صاحبُ الأمْرِ والنَّهىْ، هناك حكومةٌ رحيمَةٌ حكيمَةٌ فعليكَ بِها والقيامِ بشأنها وحفظ واجباتِها — وإلاّ فبحياتك التى أفتليها براحةِ العالم أن ( تعفونا ) من تحمل ثقل تشدُّقِك بالرّحمةِ والعَدالةِ والحكمة والفطنة !

أتُريدُ أن تظلمنا ونُكافئك بالشكْر ؟ وتغتصبَ حقوقنا ونجازيك بالثّناء ؟ أو تظنُّ أنَّكَ تقدرُ أن تغرَّ كلَّ العالم وتعمى بصائرَهُم ، وأن تنزلَ بباطِلِك عندهم منزلةَ الحق ؟ وأن تجلسَ بجَوْرِك مجلسَ العَدْل ؟ وأن تقيم سيئاتِكَ مقامَ الحسَنات ؟ وأن تُقْعِدَ رذائلك مقعدَ الفضائِل ؟ ولعلَّك اغترَرتَ بتمجيدِ وتعظيم المبصبِصين ! وتبجيل المتزلفين !

ولو كنتَ تعلمُ مقامَكَ من النفوس ، ومنزلتَكَ لدى أرباب البصائِر والعُقول ، لودَّعتَ هذه الدُّنيا الخؤُون التى ألْهتَكَ ، وفارقت حياتك العزيزة التى طالما افتديتَها بالمروءَة والإنسانية .

أمَّا أنتم يا أبناءَ الشرْق فلا أخاطكُم ولا أذكركم بواجباتِكم ، فإنكم قد ألفتم الذُلَّ والمسْكنة ، والمعيشةَ الدَّنيئة واستبدلْتُمْ القوَّة بالتأسف والتلهف .

صرتم كالعجائِز ! ! لا تقدرونَ على الدرء والإقدام ، والدَّفْع والمنْعْ والرَّفْع فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[1] . . .

(١) حذفنا من هذه المقالة كلاماً كثيراً لطولها .

## الوحدة والسيادة ـ أو الوفاق والغلب

كان جمال الدين من دعاة الوحدة إذ يرى فيها القوة والغلبة وفى هذا يقول :

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورةُ تارةً ويَهْدى إليهما الدّين تارةً أخرى ، وقد تفيدُهما التربية وممارسةُ الآداب ، وكلٌّ منهما يطلب الآخر ، ويستصحبه ، بل يستلزمُه ، وبهما نموُّ الأمم وعظمتُها ورفعتُها واعتلاؤها — وهما الميل إلى وحدة تجمع ، والكلف بسيادة لا توضع .

وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه ( يثبت ويقيم ) إلى أجل مسمىً أودع فى أصوله هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأه خلقًا سويًّا ثم استبقى له حياتَه بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله . . .

وإذا تَصَفحنا تاريخَ كلّ جنس واستقرَيْنا أحوالَ الشعوب فى وجودِها وفنائها ، وجدنا هذه سنّةَ الله فى الجمعيات البشرية — حظها فى الوجود على مقدارِ حظها من الوحدة ، ومبلغُها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب ، وما انحطّ شأنُ قوم وما هبطوا عن مكانهم إلاّ عند لَهْوِهم بما فى أيديهم ، وقناعَتِهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبوابِ ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلاً إلا بعد مارُزِئوا بالافتراق ، وابْتُلُوا بالشقاق ، فأورثهم ذلاً طويلاً ، وعذابًا وبيلاً ثم فناءً سرمديًّا .

## ٣ ـ فى ميدان العلم والاجتماع

### حقيقة التمدن

سأل السيد مرة من حوله عن معنى التمدن — أو العالم المتمدن ؟ فقالوا : هو الرقى النسبى فى المكتسبات العلمية والمدنية ، فأمة الإنكليز مثلا والفرنسيس ، والألمان ، والأمريكان ، ومن ماثلهم من الأمم ، هم مدنيون ، متمدنون بأفرادهم ومجموعهم فقال السيد :

لا يقدرُ الفَرْد ، ولا تقدرُ الأمة ، ولا تقدرُ الأشياء ، ولا تقدرُ المكتسباتُ العلمية إلاّ بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة .

فلنأخذْ مَنْ ذكرتم من الأمم المتمدنة ، ومكتسباتهم العلمية ، وما صنعوه وعملوه ، وكسبوه ، وربحوه ، وما ترتَّبَ على ذلك ، وما حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراءِ تلك المكتسبات ، والمدنية ، والثروة ، ثم نعدّد ما رأينا ؟ هل رأينا غيرَ مدن كبيرة ، وأبنية شامخة ، وقصور مزخرفة ومعاملَ ومصانع ومعادن ومناجم واحتكار تجارات ، أتتْ لهم بكنوز وثروات ؟

ثم هل غير المتفننن فى اختراعِ المدافع المروّعة والمدّمرات والقذائف[1] وباقى المخربات القاتلات للإنسان التى تتبارى تلك الأممُ الراقيةُ فيها !

لو جمعنا كلَّ ما فى ذلك من المكتسبات العلمية ، وما فى مدنية تلك الأمم من خير وضاعفناه أضعافاً مضاعفةً ، ووضعناه فى كفة ميزان ووضعنا فى الأخرى الحروبَ وويلاتِها ، لا شكَّ أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية والشرف ، هى التى تنحط وتغور ، وكفة الحروب وويلاتها — هى التى تعلو وتفور .

فالرقىّ ، والعلم والتمدن على ذلك النحوِ وفى تلك النتيجة إنْ هو إلاّ جهل مَحْض ، وهمجية صرفة وغاية التوحش ! !

ثم قال :

وعندى أن الإنسانَ اليومَ هو أحطّ درجةً من إنسان الجاهلية ، حتى ومن الحيوان الناهق ، لأنه ربما يكونُ للإنسان فى دوره الأول — فى حروبه الوحشية وعواملِ الجاهلية معذرةً فى طلب الحاجيات للحياة ، بسهم وقوس وسيف وسَمْهَرِىّ .

أما أن الإنسان أحطّ من الحيوان الناهق ( لعدم استفادته من حقيقة العلم أو العلم الحقيقى ) فأعظم أدلته « الحروب » . . .

هل رأيتَ أو سمعتَ أن ثلاثمئة ألف أفعى وقفت تجاهَها مثلُها وكشَّرت عن أنيابها لتقتل ؟ أو رأيت ذلك فى العقارب ؟

---

( ١ ) ترى ماذا كان السيد يقول فيما يتحدثون بعده من المهلكات كالقنابل النووية والهيدروجينية وغيرها ! !

وهل وقفت الأسود صفوفاً وتناهش بعضها لحومَ بعض، وسالت دماؤها ؟ أو الحمير فعلت مثل ذلك ؟ ؟ كلا ثم كلا .

إذاً فالإنسانُ فى مدنيته الحاضرة وفى كل مكتسباته العلمية والأدبية والعملية أحطُّ من هذه الحيوانات — وليس تمت مدنية ولا علم بل جهلٌ وتوحش .

ثم قال :

قرأتُ فى القرآن أمراً تغلغلت فى فهمه روحى وتنبهتُ إليه بكليتى وهو :

وإذا قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة . . .

فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ، ولهذه المشيئة الربانية — إذ علمت أن ذلك الخليفةَ سيكونُ الإنسان — وأن ذلك الإنسان — الخليفة — سيصدرُ منه موبقات وسيئات ، أعظمها وأهمها أنه « يسفك الدماء » ! !

فقالت بملء الحرية المتناسبة مع الملأ الأعلى، وعالم الأنوار والأرواح — الذى لا يصحّ أن يكون هناك فيه شىء من رياء ونفاق « أتجعل فيها مَن يُفسد فيها ويَسفك الدماء » ؟

ووقفت الملائكةُ عند هذا الحد من الطعن فى الإنسان ولم تذكر باقى السيئآت من أعماله . . .

وقد أجابهم الله بقوله « إنى أعلمُ غيبَ السموات والأرض » فأفهمهم ( أنكم علمتم ما فى خليفتى فى الأرض — وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء ، وجهلتم ما أعددتُه لصَوْنِه وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين ألا وهو ( العلم ) .

فقال وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . .

فلا تثريب على من يقول : إن الله أراد بهذا أن يقولَ للملائكة « أيتها الملائكةُ إنى قد علّمتُ آدمَ ( خليفتى فى الأرض ) علماً جهلتموه أنتم . .

وأن بذلك العلم يُصان الإنسان ، ويكفّ عن الفساد وسفكِ الدماء — فلا يَحدث من خليفتى ما خشيتموه ، وأعظمتم أمره وذلك الصون للإنسان حَصَرهُ ( بالعلم ! ) .

وجاء فى القرآن تعظيم قدر (العلم الصحيح ) لا ما نراه من القشور فنسميه علماً ، بمثل قوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » ومثل « وما يعقلها إلا العالمون » .

فترى حكم المساواة فى القرآن قدجاء عامًّا بين الناس إلا فى هاتين الآيتين . ( إذ منع فى الأولى المساواة بين العالم والجاهل ) وفى الثانية « أن يكون غير العالم عاقلاً » .

فمما تقدّم — يُفهم أن العلم الصحيح الذى يمكن للآدمى أن يصل إليه هو ( العلم ) الذى به ينتهى الإنسان عن الفسادِ فى الأرض وسفكِ الدماء — والعلم الذى لا يصون الإنسان عن هذين النقيصتين ليس هو بالعلم الذى تعلمه آدم ليدحضَ حجة الملائكة على أنه سيفسد ويسفك الدماء — بل هو يناقضه — ويشهد على ذلك النقيض ما نشاهده اليوم فى أوربا والعالم المتمدن ! مما جعل رقيهم النسبى فى المكتسبات العلمية نقيضًا للبرهان .

ولابد أن يَصِلَ العالم الإنسانى إلى درجة من حقيقة العلم يمتنع بها عن إراقة دماء بعضهم بعضًا وليس بين القاتل والمقتول ، لا نزاعٌ ولا خِصام حتى ولا تعارُفٌ بالوجوه فى غير صفوف القتال! يُساقون للمجازر لإرادة ملك مسرف مغرور ، أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الأحكام ، ويسوقون الخلق للقتل كالأنعام — يغتنمون فرصة الحرب ليكنزوا من ورائها الذَّهَب والفضّة .

وإن الإنسان لتعروُه الدَّهْشة عندما يرى أفراد الأمة يسوقُ بعضُهم بعضًا للثكنات وصُفوف القتال وجلهم غير راض عنها بل نافرٌ منها — إذ يعلم أن من ورائها يُتْمَ الأطفال ، وموتَ الشيوخ ، وهتكَ الأعراض ، يهولون عليهم ويستهوونهم باسم الوطن ! ! — والوطن بقاعٌ من الأرض ولو أنصف الناس

بعضهم بعضا لوسعتهم . . فما أحرى الإنسان أن يعيش مع أخيه فوق أديمها — وهو رفات العباد — بصحيح الإخاء وشيء من الهناء، ريثما يدركُ الجميع الفناء .

ومما يزيدُ فى الدهشة والحيْرة أن الحروب وويلاتِها لا يحتاجُ فى توقيفها وإبطالها إلا توقف الأمة عن إجابة الداعى إليها ، وطلب الرجوع إلى العدل المطلَق مع تحكيم الإنصاف المحض . .

نعم إن عدمَ إجابة الأمم لداعى الحرب ، واتفاقها على تحكيمِ العقل والعدل فيما فيه يختلفون — هو الذى يكفى البشر شرَّ الحروب والقتال ، ويجعل الخلق فى سلام دائم وهناء مقيم .

هناك يصحّ أن يُقال — إن البشر أو بنى آدم — قد تعلموا وحصل لهم مكتسبات علمية أو على اصطلاحكم « تمدَّنوا ! » ليس بمعنى أنهم تركوا القفر وعمروا المدن وسكنوها ؟ كلا ، بل بصحيح العلم الذى إنما يكون له قدر على نسبة ما يترتب عليه من الفائدة .

وأعظم ما يبعث على الأمل فى إبطال الحروب — إذا ارتقى العالم الإنسانى فى حقيقة العلم وعم طبقاته — أنك لو أخذت إليوم جميعَ عساكر بريطانيا وتخيلتهم حقيقة مثل ( نيوتون ) و « دارون » وغيرهما وفرنسا مثل « باستور » وأمثالهم من باقى الأمم فهل يقفون صفُوفًا للقتال ؟ لعدم احترامِ سفير ! لأن كرسيَّه وضع فى المأدُبة الملوكية فى غير الوضع الذى يريده[1] وهل يُريقون دماءَ مئاتِ الألوف من تلك الأنفسِ الذكية لذلك، أو لأجل بقعة من الأرض يطمعونَ فى ضَمها للملكة أو يستعمرونها ؟ ؟

لا أظنّ ولا تظنون ذلك . ولا هم يفعلون .

(١) هذا كان من أسباب وقوع الحروب بين الأمم ولعله لا يزال . . .

# الاشتراكية

قال رجل من كبار أدباء الأتراك – للسيد جمال الدين – وكان معجباً بالأمم الغربية ونهضتها الاجتماعية : إن خير ما فى أوروبا من النهضة هو الاشتراكية ، وهذه النهضة هى التى ستؤدى حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل .

فإذا كان الدين الإسلامى أو المشيخة الإسلامية[1] ، يقاومان مذهب الاشتراكيين – فأرى هناك ثلمة لا تسد بسهولة وحائلا يجب ملافاته بالحكمة فما رأيكم ؟ فقال جمال الدين :

إنَّ ما تراهُ من الاشتراكيةِ فى الغرب ، وما تتوخاهُ من المنافعِ بذلك المذهب – فى شكلِه الحاضر – وأسسِه وتخبط واضعى مبادئه – كل ذلك يعكسُ نتائجَ الاشتراكية ويجعلُها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

**الاشتراكية الغربية :**

الاشتراكية الغربية ما أحدثها وأوجدها إلاَّ حاسةُ الانتقام من جَوْر الحُكّام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء الذين أثْرَوْا من وراءِ كد هؤلاء العمال وعملهم وادخروا كنوزَهُم فى الخزائن ، واستعملوا ثروتهم فى السَّفَه ، وبذلُوها فى السَّرَف والتبذير والترف – على مرأىً من منتجِها ، والفاعل العامل فى استخراجِها من بطونِ الأرضِ ومن ترابِها و . و . إلخ .

وبالاختصار ثمراتُ العمال بكل أنواع حاجة العمران .

فكلُّ عمل يكون مرتكزاً على ( الإفراط ) لا بُدَّ أن تكون نتيجتُه (التفريط)

أفْرَطَ الغَربيون ( الأغنياء ) فى نبْذِ حقوقِ العمال والفقراء وراءَ ظهورهم ، فأفْرَطَ العمال فى مناهضةِ أهل الثروة وغاصبى حقوقِ الأمة – بالمناصب ومسببات الجاه – فلا قاعدةَ دينية يُرجع إليها ، ولا سلطان وازع – يعمل بقهر – لصالح المجموع – لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكيَّة ( فوضى ) ولسوف ينعكسُ أمرها .

---

( ١ ) فى تركيا وكان السيد جمال الدين مقيما حينئذ فى الآستانة .

**الاشتراكية فى الإسلام :**

أمَّا الاشتراكيةُ فى الإسلام فهى ملتحمةٌ مع الدين الإسلامى ملتصقةٌ بخلق أهله منذ كانوا أهلَ بداوة ، وجاهلية .

فأوّلُ من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابرُ الخلفاء من الصّحابة، وأعظم المحرّضين على العمل بالاشتراكية هم كذلك من أكابر الصحابةِ أيضا .

أمَّا أن الاشتراكيةَ من خلق البداوة فالبرهانُ عليه ما كان من أهل الثراء منهم ومواساته لأهلِ قبيلته وعشيرتِه — ولا أعدّ كثيراً من ذلك — بل أجتزئ بمن اشتهر منهم — مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة . . . .

وهناك رجلٌ آخر من رجالِ العرب وهو ( طلحة الطلحات ) كان شأنه — أن كلّ أعزل مُعْدم يأتيه يقول له « دونك الفرسَ والرّمحَ والسيفَ فعسى أن تكتفى بها ذل السؤال ، وإن لم تفعل ولم تحسن العمل بها فلا أرشدكَ الله ولا أغناك »

ويقال إنه جهّز ألف فارس — وكان كلُّ فارسٍ ممّن جهّزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحة ، وبذلك سُمى طلحة الطلحات .

هذا مثلٌ من الاشتراكية قبل الإسلام — ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزالُ موجودةً فى الأفراد ولكنَّ حُسْنَ استعمالِها ، وجَعْلَ نصيبٍ للآخرين فيها ، يجعلُ الاشتراكية أمراً مقبولاً وصفة ممدوحة . اذ لا أنانية ولا أثرة .

أمَّا ما عليه أهل الثروة اليوم الذى استنفر طبقةَ العمال للمطالبة بالاشتراكية وبعث عندهم روحَ الانتقام والإفراط فى المطالبة بحقهم — وما يقابله من التفريط فى زجرهم وعدم إعطائهم حقهم ، فسوف يتفاقم الخطبُ بسببه وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب ولا يسلمُ بها منها الشرق .

**الاشتراكية فى الإسلام :**

أمَّا الاشتراكيةُ فى الإسلام — فهى خيرُ كافل لجعلها نافعةً مفيدة ممكنا الأخذُ بها ، لأنَّ الكتابَ الدينى وهو ( القرآن ) أشار إليها بأدلّةٍ كثيرةٍ منها:

إنَّ المسلم أوّلُ ما يقرأ من فاتحة الكتاب ( الحمد لله ربّ العالمين ) فيعلم أن للخلق ربًّا واحداً ، وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء .

ويرى ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أربابِ القوّة ورجالِ الحرب والغزاة ، ومن يتولى إمرتَهُم وقيادتَهُم فخاطبهم آمراً ومعلماً ومدافعاً ومبيناً حقوقَ المستضعفينَ من الأمّة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ، ليكون لهم من ذلك الجهاد وتلك المساعى نصيباً ، إذ قال :

« واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خُمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

هذه آيةٌ باهرَة ، أوجبتْ على من يسعى مجاهداً ، ومخاطراً بحياته أن يكون مشتركاً معه فى نتيجة غزواتِه وغنائمِه — من لم يكن مشتركا فعلاً ، فأعطى أولا ( لله ) تعالى نصيباً ومرجع ذلك النصيب لعبادِه .

وثانيا : للرَّسُول — وثالثا ، لذوى القربى — وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراكِ فى الجهادِ والسعى وراءَ الغنائم لعللٍ تختلفُ أشكالها وأنواعُها ، ولكنَّ الذين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيباً من مساعى أولئك الأشدّاء الأقوياء المجاهدين — وعطف على من دونهم فى المرتبةِ الثانية ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء فقال ( واليتامى ) ثم وسَّعَ نطاقَ الاشتراكية فقال ( والمساكين ) ثم رَأى أن يأخذ نطاقا أوسع فقال ( وابن السبيل ) أى عابره فتم بهذا الشكل نوعٌ من الاشتراكيةِ لم يكن أوسعَ منه شكلاً ولا أنفعَ :

كلُّ ذلك نراهُ مبينا على حكمة الاشتراك — ولبث حكُم هذه الآية جارياً ، وكان الرّضا به شاملاً لمجموعِ المسلمين من مجاهدٍ أو قاعدٍ عن الجهاد .

ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب ( القرآن ) مقرعاً لمن يكنزونَ الذّهبَ

والفضة — ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرونَ على أنفسهم بالعطاءِ والإسعافِ والإطعامِ ولو كان بهم خصاصة .

وهكذا نرى قانونَ الاشتراكيّة المعقول فى آياتِ القرآن تترى . . .

وبعد أن بين السيد أمر المؤاخاة التى عقدَها النبيُّ بين المهاجرين من مكة بعد أن تركوا أموالَهُمْ ، والأنصار من المدينة الذين شاركوا المهاجرين فيما يملكون قال :

ولو تطلَّعَ الإنسانُ منا اليوم وأشرفَ على تلك الأرواح الطَّاهرة — لرأى من مجالى الاشتراك روحًا وجسداً — ما ينبهرُ لهعقلُهُ ، ولصحَّ اعتقادُه أن عملَ الدين وتأثيرَه فى تلطيفِ الكثافة الجسمانية لا يضارِعُه مؤثر ، أو عاملٌ آخر على البشرية ، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون .

ثم قال : لما كان مذهبُ الاشتراكيّة كبقية المذاهب والمبادئ — له طرفان ( وخير الأمور أوساطها ) رأى الشارعُ الأعظمُ أنَّ تنعُّمَ فريقٍ من قوم ، وشقاءَ فريق آخر فى محيط واحد — مما لا يتمّ به نظامُ الاجتماع — وكان النبيّ ( ص ) بالمؤمنين رحيماً ، فجاءَهُ عن طريقِ الوحى — وهو نتيجةُ تمحيصِ نزعاتِ النفس البشرية ، وما عسى أن ينجم من المضارّ أو المنافع لها — من أجل ذلك وضع للدين أركانًا خمسة — ومن تلك الأركان : فرض الزكاة فى المال والركاز[1] والأنعام إلخ .

ثم أضاف إليها — كما سبق — « غنائم الحرب » فأخذ منها بمقدار الخمس .

ثم بعد ذلك حرَّض على بذْلِ الصّدقات .

ومما قاله السيد فى الربا — وأنه يصح إباحة الربا المعقول إذا اقتضت المصلحة :

وحرَّمَ ( الربا ) بنكتة غايةٍ فى الحكمة ( أن لا يؤكل الربا أضعافًا مضاعفة ) وهو ما وقعَ عليه التحريم — ولكى يكونَ للإمام مخرج إذا اقتضت،

( ١ ) الركاز هو المال المدفون ويقال هو المعدن

المصلحةُ بالتسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز فى برهةٍ من الزمن رأسَ المال ، ويصير أضعافاً مضاعفةً .

وفرق صراحة بين احتيالِ المرابينَ المتلبِّسين بالدِّين — الذين يتظاهرون بالتجنبِ عن الربا ببيعهم سلعةً قيمتُها الحقيقية مئةُ درهم فيجرون عقد بيعها مع المشترى المضطرِّ بثلاثمئة درهم — وحقيقةُ هذا الفـَرقْ إن هو إلاَّ نصيب الربا وعينه — وإنما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون أنفسَهم بأنهم تخلَّصُوا من ارتكاب جريمةِ ( الربا ) التى حظرها عليهم الدين .

وإليك بعضَ ما جاءَ بهذا الشأن فى القرآن ( الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسِّ — ذلك بأنهم قالوا : إنما البيعُ مثلُ الربا وأحل الله البيع وحرم الرِّبا ، فن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله، ومن عاد فأولئكأصحاب النار هم فيها خالدون — يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم .

وقال « يا أيُّها الذين آمنوا لا تأكلوا الرِّبا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أمَّا ما جاء فى الحثِّ على الصَّدقات فكثير : كقوله تعالى « إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فنِعِمَّاهِيَ ) وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ،ويكفـِّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعلمون خبير » .

وقال « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله » .

وقال : « إن الحسنات يذهبن السيئات » وأمثالُ ذلك كثيرٌ فى الكتاب والحديث — حثا وتحريضًا على البذلِ ومؤاساةِ الفقراء وأهل العوز .

## علم الثروة

وإذا نظرنا إلى علم الثروة رأينا أنَّ كثيراً من المتأخرين قد ادَّعَوْا وضع قواعدِه الكلية ونوَّه بذكر أفرادِهم لبراعتهم فى فنِ الثروة ومن أعظم تلك القواعد —

وجوبُ جباية العشر وقتَ الحصاد ، وما ينطوى تحت ذلك من أموالٍ يؤخذ عنها ( رسوم ) عند وجودِها ، وأنَّ من فوائد ذلك سهولةَ أداء الزارع ما عليه من الحق فى وقت الحصاد .

فترى أن القرآن قد سبق أولئك العلماء فى فن الثروة وجاء بتلك القاعدة فى قوله :

وهو الذى أنشأ جناتٍ معروشات وغيرَ معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه — كلوامن ثمره إذا أثمر — وآتوا حقه يوم حصاده[1]

وهكذا ترى فى القرآن — إمَّا إشارات إلى كليات العلومِ وقواعدِها — وإمّا بصراحة .

## الزواج — ومساواة المرأة بالرجل

## والحجاب والسفور

عاش السيد طوال حياته عزباً لم يقترن بامرأة

وكان كلما اشتكى أحد من كثرة العيال وقلة ذات اليد ، يعينه بقدر ما يستطيع ويقول : له : قل : وأثقلت ظهرى بالذى خف من ظهرى

وكان السلطان عبد الحميد يريد أن يربط السيد بالزوجة والأولاد فعرض عليه جارية حسناء من نساء قصر يلديز[2] ، ليتأهل بها فامتنع السيد وأبى

ولما قيل له : إنك إذاً تحب تأييد مذهب أبى العلاء حيث يقول :

هـذا جناه أبى عـلى وما جنيت عـلى أحـد

قال :

كلاَّ ، ولا أعتقدُ أنَّ مثلَ هذا القول يصحُّ أن يعزى إلى حكيم مثل أبى العلاء ، لأنه ينافى الحكمة ، ولا أن يُتَّخَذ حجَّةً أو قدوة .

---

( ١ ) وقال تعالى « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وهذا يعم كل أصناف المال . محمود أبو ريه

( ٢ ) يلدز هو قصر السلطان عبد الحميد .

إذ كيف يصحُّ لعاقل أن يعتبرَ التأهل – والازدواج جناية – وإن قيل إنه جناية معنوية فى بعض نتائجه كيف يصحُّ لولدٍ صار حكيماً مثلَ المعرى ولولا علة وجوده ، وهو ازدواج أبيه لما برز من العدم ، أن يلصق الجناية بأبيه خلافًا لكل عقلٍ ونقلٍ ؟

ومن ينكر أنَّ بقاءَ النوع واستكمالَ حكمةِ العمران – ما كان ولن يكون إلاَّ بالتَّناسُل والتَّزاوج .

## حكمة الزواج وشرطه :

أمَّا حكمة الزَّواج وشرْطُه ، فقد جاءَ فى القرآنِ على أوضح وجهٍ وأصْرَح بيان ، إذ قيَّدَ من خاف أن لا يَعْدِل ( بالمرأة الواحدة ) – وتَرَكَ لمن يخشى أن لا يعدل حتى مع الواحدة – عدمَ الزواج ، وهذا ما يستنتجهُ العَقْلُ ما دام يحمله العاقل ويقولُ به الحقُّ والعَدْل .

## سبب عزوفه عن الزواج :

أمَّا أنا فمعرفتى بما تتطلَّبُه الحكمة الزوجية من معانى العَدْل ، وعجزى عن القيام بأمْرِه – دفعنى أن أتَّقى عدمَ العَدْل ببقائى عَزَبًا من أن أتأهل وأكون ظالمًا »

فقال له طبيب موسوى :
فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟
فتبسم السيد وقال له :

إنَّ الطبيعةَ أحْكَمُ منك! فهى تدبِّر نفْسَها ومن تركَ شيئاعاشَ بدونِه .
ولمَّا قيلَ له : لِمَ لمْ تقبل أن يعطيكَ السُّلْطانجاريةً حسناءلتتزَّوجُها قال :
أمَّا الزواجُ بالجاريةِ الحسناءفما أنا بالكُفْء لها ، ولستُ بوليِّها لأتحرَّىلها كفؤاً .

فقيل له :
لو فرضنا أنك قبلت تكليف السلطان واقترنت بامرأة فما هى الخطة التى كنت ترسمها لقرينتك وما رأيك فى مساواة المرأة بالرجل ! قال :

**مساواة المرأة بالرجل – والحجاب وهتكه :**

إنَّهُ ليسرُّنى إذ صار فرضكم فى أمر زواجى ( نفلاً ) أو فى حقيقته لغواً وتخلصت من الخطة والخطط والخطوط ! !

أمَّا أمرُ مساواةِ المرأةِ بالرجل ، والحجاب وهتكه ، وحقوق المرأة إلخ فقد قَرَعَ آذانى مراراً ، وقرأتُ فى هذا الموضوعِ مقالاتٍ ورسائل ! ولكن لا أكتمكم أنّى لم أعثُرْ فى كلِّ ذلك على مقالٍ صريح ، أو تحديد لمطلبِ المساواة أو على بيانِ الغايةِ من هتْكِ الحجابَ ، أو الفائدة التى تترتَّبُ عليه ، أو تأتى من ورائه .

ولا أظنُّ أنَّ ضجيجَ بعضِ النَّاشئةِ فى الشرق ، والمتفرنجين منهم يقصدون بطلبهم – مساواةَ المرأةِ مع الرجل – فى التكوين ، ذلك لأنه ممتنعٌ بل مستحيل .

فإذا صحَّ هذا الامتناعُ من هذه الوجهة ، فلا مناصَ من أن تبقَى المرأةُ – كما هى امرأة – تكويناً والرَّجُل رجلاً .

وأمَّا إذا قصدوا المساواةَ من حيثُ المواهبُ الفطريَّة– فهذا أثرُ الاكتساب فيه ضعيف – فالشَّاعر والشاعرة ، إذا كان فى فطرتهما حسنُ التصوُّر ، وسعةُ الخيال مع صفاءٍ فى السَّليقة – برعا فى الشعر .

وإن لم يكونا كذلك – وانصرفا إلى أوزانِ الخليل تَعَلُّماً واكتساباً من فاعلاتٍ فاعلات وفاعل ومفعول – فلا يخرجان إلاَّ وازناً ووازنة !

أمَّا ما بقى من العلوم التى تحصل للإنسان بالتعلُّم على نسبٍ مختلفة بحسب القابلية الفطريةِ ، من طبٍّ وهندسةٍ وفلاحةٍ وصناعة إلخ – ففى انهماك المرأة ودخولها معتركَ هذه الصناعات نظر .

**المجتمع الإنسانى يقوم على دعامتين : المرأة والرجل :**

فالمجتمعُ الإنسانى إنَّما قامَ على دعامتين أو يقومُ بالمجتمع عاملان : المرأةُ ، والرَّجُل .

فلنأخذ الرّجل ونبحث فى تكوينه ، وخَلْقه وتركيبه فنرى فى أعضائِه ووجوده ما ليس فى المرأةِ ولا حاجة إلى التفصيل ، والرّجوع إلى علم التشريح — وكذلك فى المرأة وتكوينها ما ليس فى الرَّجُل .

وفى كلا التكوينين من ناقصٍ وزائدٌ ، لا يُعَدُّ بالنظر إلى الفطرة لا نقصًا ولا كمالا ، لأن الطبيعةَ أحكمتْ صُنعها فى ذلك ، وأجادت فى تكوينها — فتبارك الله أحسن الخالقين » .

يُرْشِدُنا ذلك التبايُن فى تكوينِ العاملين إلى وجوبِ اختلافِ عملهما بما لديهما من مُعَدَّات وآلاتِ التكوين — ليتم من ورائهما عملٌ صحيح فى النتيجة وبناء مستجمع لوازمه .

وإذا أخذنا ما يحترفُه الإنسانُ من الصَّنائع ، وما يتوخّاه من ورائها ، فلا نراه يخرجُ من كل ما يتحمَّلُه من مضَضِ التعلُّم ، ومزاولةِ العمل عن كسبِ القوتِ له ولعيالِه — ولا يقالُ عائلة : إلاَّ إذا شكِلت من رجل وزوجة وأولاد .

وبديهىٌّ أن أبْسَطَ أنواعِ القوت وهو الخبز — يحتاجُ ليصير خبزاً إلى عشراتِ العمال منهم من يعالجُ الأرضَ بالحراثة لتصلح لبذر القمح ، وأبقار ، وسائس ، ومُساس ، ويلزم له الحدّاد والحدّاد يلزمه أعوان ، ومطحنة وطاحن إلخ حتّى يصير دقيقًا فتعجنه المرأة وتخبزُه فى التنُّور أو يخبزه الفرّان — فإذا شاركت المرأةُ الرّجل فى الصناعات ( وهى لا تكونُ فى ذلك إلاَّ خارج البيت ) فمن يُدير أو يدبرُ مملكةَ البيت ؟ ومن يربّى الطفل ؟ ومن يخطُّ فى لوحه الصقيل رسومَ الشجاعة والفضيلة والإقدام ؟ غير المرأة ! ومن يربّى الأقيال فى أخلاقهم غير تلك الملكة وهى المرأة ! اللهم إذا أرادت أن تبقى ملكة ! لا أن تبقى ملكة وملكا فى آنٍ واحد .

ليس من يحطّ من قدرِ المرأة ويمتهنُ خلقَها ويدهورها لدركاتِ الابتذال إلاّ ذلك الذى يُغْريها على ترك مملكتِها وبيتها ، وأن تزاحم الرجل فى شقائه

obeikandl.com

بجلب العيش ـ الذى لو فرضنا أنها أفادت بعض الفائدة المادية فيه ، وعاونت به ـ لا شك أن الخسارة تكون من وراء تركها المنزل وتدبيره والطفل وتربيته، أعظم بكثير من تلك المنفعة التى لا تبقى على الأخلاق ، ولا تفسد إلا الإنساب والأعراق .

**السفور :**

أما رفع الحجاب فما رأيت لمن قال بلزومه ، وخطب فيه أو كتب ـ أنه ذكر أقل نفع له أو فائدة تأتى من ذاته أو من ورائه .

والذى أراه ـ أن الحجاب ستار إذا رفع طفرة وفجأة إنما يظهر على الغالب من تحته شناعات الخلاعة والتبرج واستهوان الفجور وعدم المبالاة بالرقابة العامة .

ولو اقتصر النساء على الاكتفاء بالسفور ـ ولم يتخذ مطية للفجور لما كان فى الأمر ما يحتاج لأخذ ورد ـ ولكن إذا رأينا للسفور متممات لا تتم إلا فى خارج البيت ، فهناك الطامة ، وفواجع الطفرة ، واختلال التوازن فى أعمال الشريكين . .

## باب الاجتهاد

عرف السيد جمال الدين بأنه كان ينفر نفوراً شديداً من التقليد الأعمى الذى اتبعه المتأخرون ، وكان من الذين ( يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) ويأخذ بالصحيح من الأقوال وما هو أقرب إلى الحق وما يسيغه العقل ، وكان ينبذ الضعيف من الأقوال مهما صححوه بأسانيدهم .

ذكروا يوماً فى مجلسه قولا للقاضى عياض ، واتخذوه حجة ، واشتد تمسكهم بذلك القول حتى كادوا ينزلوه منزلة الوحى . . فقال جمال الدين :

يا سبحان الله : إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه وناسب زمانه ـ فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب إلى الحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة ؟

وهل يجب الجمودُ والوقوفُ عند أقوالِ أناسٍ ( هم أنفسهم لم يقفوا عند حدّ أقوال من تقدّمهم ) فقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلوا دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسبَ زمانهم ، وتقارب مع عقولِ جيلهم — وتتبدلُ الأحكامُ بتبدُّلِ الزمان .

ولما قيل له : إن ذلك يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنّة مسدود لتعذّر شروطه ! تنفس الصُّعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود، وبأى نص سُدّ بابُ الاجتهاد؟ أو أى إمام قال : لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ؟ أو أن يهتدى بهدى القرآنِ وصحيحِ الحديث ، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها والاستنتاج بالقياس على ما ينطبقُ على العلوم العصرية وحاجياتُ الزّمان وأحكامه ، ولا ينافى جوهرَ النصّ !

إن الله بعثَ محمداً رسولا بلسان قومه ( العربى ) ليُفهمهم ما يريدُ إفهامهم ، وليفهموا منه ما يقولُه لهم « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان « قومه » وقال : « إنّا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » وفى مكان آخر « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » .

فالقرآن ما أُنزل إلا ليُفهم — ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبُّرِ معانيه ، وفهم أحكامه والمراد منها .

فمن كان عالماً باللسانِ العربىّ وعاقلاً غيرَ مجنون ، وعارفاً بسيرةِ السَّلَف وما كان من طرق الإجماع — وما كان من الأحكام مطبقاً على النصّ مباشرة ، أو على وجهِ القياس وصحيح الحديث جاز له النظرُ فى أحكام القرآن وتمعُّنها ، والتدقيق فيها ، واستنباطِ الأحكام منها ، ومن صحيح الحديث والقياس .

ثم قال : « لا أرتابُ فى أنه لو فُسِحَ فى أجَلِ أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل وعاشوا إلى اليوم — لداموا مجدّين مجتهدين ، يستنبطونَ لكلّ قضية حكماً من القرآن والحديثِ والقياس — وكلّما زاد تعمُّقهم وتمعنُهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً .

نعم إن أولئك الفحولَ من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا ( جزاهم الله عن الأمة خيراً ) ولكن لا يصحّ أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكّنُوا من تدوينها فى كتبهِمْ — والحقيقةُ أنّهم — مع ما وصلنا من علمهم الباهِرِ وتحقيقهِم واجتهادِهم — إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم، والحديث الصحيح من السنن ، والتوضيح، إلاّ كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر « والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده» — وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

## اجتهاده فى اللغة

عرف من رأى السيد جمال الدين : أنه يجوز استعمال الدخيل ،واللفظ الأعجمى فى الكلام العربى، حتى روى عنه أنه قال :

إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا أن تلبسوها كوفية وعقالاً فتصبح عربية — وقد كنّى بالكوفية والعقال عن التعريب .

ومن أشهر آراء السيد جمال الدين التى تتعلق بأبحاث اللغة ما رواه الأستاذ اللغوى الشيخ عبد الله البستانى من أن السيد قال فى هجو بعض البلداء : هذا رجلٌ من نَسْلِ البَقَرُوت ! فعابُوا عليه استعمالَ كلمة ( البقروت ) فأجابهم ، ألا تقولون : جَبَرُوت ورَهَبُوت وَمَلَكُوت ؟ فاعترضوا عليه بأنّ البقروت لم ترِدْ فى كلام العرب ، فقال ، وهل تريدونَ أن أنكرَ نفسى . وعلّق الأستاذ البستانى على ما قاله الأفغانى مستحسنًا .

وروى المخزومى باشا فى الخاطرات أن عبارةَ السيّد ، هى (سياسة بقروتية فى مملكة فرعونية ) ولمّا اعترضوا عليه أجاب : كيف يصح قولهم ملكوت وجبروت ! هكذا يصح عندى بقروت .

## ضرر المقلدين !

علّمتنا التجارب ، ونطقتْ مواضى الحوادث بأنّ المقلّدين فى كلّ أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذَ وكُوىً لتطرّق الأعداء إليها ، وتكون مداركهُم مهابطَ الوساوِس ، ومخازنَ الدّسائس ، بل يكونون بما أفعمتْ أفئدتُهم من تعظيم الذين قلّدوهم ، واحتقار من لم يكن على مِثالِهم ، شؤمًا على أبناء مِلّتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلّتْ ، وإن بقى فى بعض رجالِ الأمة شىءٌ من الشّمَم ، أو نزوعٌ إلى معالى الهِمَم ، انصبُّوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتى يمحى أثر الشهامة ، وتخمد حرارةُ الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائعَ لجيوشِ الغالبين وأرباب الغارات ، يمهّدون لهم السبلَ ويفتحون الأبوابَ ، ثم يثبتون أقدامَهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ، ولا يظنون أنّ قوّةً تغالب قواهم .

## سعادة الأمم

قال السيد جمال الدين : إن الأمور التى تتم بها سعادة الأمم هى :

الأول : صفاء العقول من كَدَر الخُرافات ؟ وصَدَأ الأوهام ، فإن عقيدةً وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع . ويمنعُه من كشف نفسِ الأمر — بل إن خُرافةً قد تقفُ بالعقلِ عن الحركة الفكرية ، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المِثلْ على مِثْلِه فيسهلُ عليه قَبُولُ كلّ وهم ، وتصديقُ كل ظن — وهذا مما يوجبُ بعده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يُخْرَق ، وفوق ذلك ما تجلبُه الأوهام على النفوس من الوحشة ، وقربِ الدّهْشة ، والخوف مما لا يُخيف ، والفزع مما لا يُفْزِع . . وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ، ثم يكون ألعوبةً فى أيدى المحتالين وصيدا فى حبائلِ الماكرين والدّجّالين .

وأول ركن بُنى عليه الدين الإسلامى — صقلُ العقول بصقال التوحيد

وتطهيرُها من لوثِ الأوهام ــ فمن أهمّ أصوله ــ الاعتقاد بأنّ الله منفردٌ بتصريفِ الأكوان، متوحّد فى خلقِ الفواعل والأفعال ــ وأن من الواجبِ طرحَ كل ظنّ فى إنسان أو جماد ، علويًّا كان أو سُفليا ــ بأن له فى الكون أثراً بنفع أو ضر ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز أو إذلال .

الأمر الثانى : أن تكونَ نفوسُ الأمم مستقبلةَ وجهةَ الشّرف، طامحةً إلى بلوغ الغاية منه ، بأن يجد كلٌ واحد من نفسه أنه لائقٌ بأية مرتبةٍ من مراتب الكمال الإنسانى ما عدا رتبة النبوّة فإنها بمَعْزِلٍ عن المطمَع وإنما يختص الله بها من شاء من عبادِه .

ولا يذهبُ وهْمُ أحدٍ من الأمة إلى أنه ناقصُ الفطْرة ، منحطٌّ المنزلة فاقدُ الاستعداد لشيءٍ من الكمالات ، فإذا أخذت نفوسُ الناسِ حظّها من هذه الصفة ــ أعنى الإقبال على وجوهِ الشرف ــ تسابقَ كلٌ مع الآخر فى مجالاتِ الفضائل وتمادتْ بهم المجاراةُ إلى محاسنِ الأعمال، فبلغَ كلٌ واحد ما أتى عليه سعيه من عالياتِ الأمور ، وشرائفِ المراتب .

ولو أنّ قومًا أساءوا الظن بأنفسهم ، واعتقدوا ، أن نصيبَهم من الفطْرة نقصُ الاستعداد ، وخسّةُ المنزلة ، وأنْ لا سبيلَ لهم إلى الوقوف فى مصافِ غيرهم من طبقاتِ النّاس ــ فلا ريْبَ يسقط من هممهم على مقدارِ ما ظنّوا فى أنفسهم ، وبذلك يتولى النقص أعمالَهم ، ويملك الجمودُ عقولَهم ، فيحرمون معظمَ الكمالات البشرية ، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية ، وتكون جولتهم فى دائرةٍ ضنكة ، محيطها دون ما ظنوا بأنفسهم .

إن دين الإسلام فتحَ أبوابَ الشرف فى وجوهِ الأنفس ، وكشف لها عن غايتهِ ، وأثبتَ لكلّ نفسٍ ، صريحَ الحق فى أى فضيلة ، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأىّ منزلٍ من منازل الكرامة ، ومحو امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ــ وقرّر المزايا البشرية على قاعدةِ الكمال العقلى والنفسى لا غير ــ

فالناسُ إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . . .

obeikandi.com

ومن الأديانِ ما يغلبُ اليوم على أمم من البشر ومن أصوله تفضيل شعبٍ خاص على بقية الشعوب ، كشعبِ إسرائيل مثلاً وكتابه المعروف يخاطبُ أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال ويذكر غيرهم بالتحقير والإهانة . .

الأمر الثالث : أن تكون عقائدُ الأمة : وهى أول رقم يُنْقَش فى ألواح نفوسِها — مبنيةً على البراهين القويمة ، والأدلة الصَّحيحة ، وأن تتحامى عقولُهم مطالعةَ الظنون فى عقائدِها ، وتترفعُ عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها .

فإن معتقِداً لاحتْ العقيدةُ فى مخيِّلته بلا دليلٍ ولا حجّة ، قد لا يكون موقنًا ، فلا يكون مؤمنًا .

هذا والآخذُ فى عقائدِه بالظّن ينصبُّ عقلُه على مُتابعةِ الظنون ، والقانع بأن آباءه كانوا على مثلِ عقيدتهِ ، فأولى به أن يكونَ عليها ، يلتقى مع سابقه فى مضاربِ الوهم ، وفِجاج الظن — وأولئك المتبعون للظن[١] ، القانعونَ بالتقليد ، تقفُ بهم عقولُهم عندما تعوّدت إدراكه ، فلا يذهبون مذاهبَ الفكر ، ولا يسلكون طرائقَ النظر ، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ، ثم تكاثفت عليهم البلادةُ حتى تُعطّل عقولَهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ، ويتعثر بهم البحث ، وبئس المآلُ مآلُهم ...

إن الدين الإسلامى يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخِ المتبعين للظنون ، وتبكيتِ الخابطين فى عشواء العماية والقَدْح فى سيرتهم . هذا الدين يطالبُ المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم ، وكلما خاطب ، خاطب العقل ، وكلما حاكم ، حاكمَ العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبَصيرة ، وأن الشقاء والضلالة ، من لواحق الغَفْلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد

---

(١) إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً .

كل منها ينفع العامة، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعيّ أتبعَهُ ببيان الغاية منه فى الأغلب ( راجع القرآن الشريف ) .

الأمر الرابع : أن يكونَ فى كلّ أمّة طائفةٌ يختصُّ عملها بتعليم سائرِ الأمة ، لا ينونَ فى تنويرِ عقولهم بالمعارف الحقة ، وتحليتها بالعلوم الضافية ، ولا يألون جهدا فى تبينِ طُرُق السعادة لهم ، والسلوكِ بهم فى جوادها ، ثم طائفة أخرى تقومُ على النفوس ، تتولّى تهذيبها ، وتثقيفَ أوَدِها ، وتكشفُ عن الأوصافِ الفاضلة وحدودها ، وتمثلِ للمداركفوائدها ومحاسنَ غاياتها، وتفضحُ مستورَ الرذائل ، وتشقُّ الحجابَ عن مضارها ، وسوء منقلَب المتدنسين بها ، وتشتدُّ فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لا تلهها عنهما غفلة ولا تردها عنهما صعوبة .

وذلك أن بداهةَ العقل حاكمةٌ بأن جُلَّ المعارف البشرية ، والعقائد الدينية مكتسَبة ، فإن لم يكن فى الناسِ معلم قَصرت العقولُ عن درك ما ينبغى لها دَرْكُه ، وانقطعت دونَ الكفاية مما يلزم لسدّ ضرورات الحياة الأولى ، والاستعداد لما يكون فى الأخرى ، وساوى الإنسان فى معيشته سائر الحيوانات وحرم سعادةَ الدارين ، وفارق هذه الدنيا على أتعسِ الأحوال ! فإذن من الواجب الدينى : إقامةُ معلم .

والشهواتُ النفسية ليس لها من ذاتها حدٌّ تقفُ عنده ، ولا لرغائبِ الأنفس غاية تنقطعُ عندها ، فإن فقد من بين الناس مُقَوِّم النفوس ، ومُعَدِّل الأخلاق طغى سلطان الشهوة ، واندفع إلى الحيف والإجحاف .

ومن طغتْ بهم شهواتُهم سلبوا راحةَ غيرهم ، وهتكوا ستر أمتهم ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم ، بل يحترقون بنيران شهواتهم ، فيرافقون الدنيا على عناد ويفارقونها إلى شقاء ، فإذن لا بُدَّ من الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، القائم بتقويم الأخلاق .

وإن من أهم الأركانِ الدينية فى الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين :

« نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر » راجع القرآن الشريف « ولتكُن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر » وقال تعالى « فلولا نفر من كل فرْقة منكم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم ، إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وسواها آيات.

وقد برزَ دينُ الإسلام على غالبِ الأديان فى العنايةِ بهذين الأمرين .

وحيثُ كانت أركان الدين الإسلامى بالغةً حدَّ الكثْرة ، فلو أخذت فى بيانِ ما يفيده كلُّ ركن منها فى تقويم المدنية ، وتشييد بناء النظام الإنسانى ، وإقامة الدليل على أن كلَّ أصل من أصول هذا الدِّين عنصرٌ لحياة السعادة الإنسانية ، لخرجت عن القصد. فإن قال قائل — إن كانت الديانة الإسلامية على ما بيّنت فما بالُ المسلمين على ما نرى من الحال السيئة ، والشأن المحزن فجوابه :

## سبب تأخر المسلمين :

إن المسلمين كانوا — كما كانوا ، وبلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يَشهدُ بفضلهم .

وأكتفى الآن من القول بهذا النصِّ الشريف :

« إن اللهَ لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » .

## ٤ — فى سبيل الشرق أجمع

### ركبوا الشطط :

نشر جمال الدين كثيراً من المقالات الإصلاحية فى مجلة « العروة الوثقى » وإليك بعض ما جاء فى فاتحة العدد الأول من هذه المجلة :

« ربَّنا عليكَ توكَّلْنا ، وإليكَ أنَبْنا وإليكَ المصير »

هذا ما تمده العناية الإلهية من قولِ الحق ، متعلقًا بأحوالِ الشرق وعلى الله المتَّكل فى نجاح العمل . .

بلغَ الإجحافُ بالشرقيين غايتَه ، ووصلَ العُدْوانُ فيهم نهايتَه ، وأدركَ المتغلب منهم نكايتَه، وخصوصًا فى المسلمين منهم . فمنهم أعزّاء باتوا أذلاء ، وأجلاّء أصبحوا حُقَراء ، وأغنياءَ أمْسَوْا فُقَراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحوّلَتْ نعامًا ولم تبقَ طبقةٌ من الطّبقات إلاّ وقدمَسّها الضرْ من إفراطِ الطّامعين فى أطماعهم خصوصا من جرّاء هذه الحوادث التى بذرت بذوردها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات[1] بأيدى ذوى المطامِع فيها .

حملوا إلى البلادِ ما لا تعرِفُه ، فدهشت عقولُها ، وشدّوا عليها ما لا تألفُه فخارت ألبابُها ، وألزمُوها ما ليسَ فى قُدْرَتِها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكةِ الوازِع تحت اسم العَدالة ليهيئوا باسم ذلك وسيلةً لنَيْل المطمَع ، فكانت الحركةُ العرابية العَشْواء فاتخذوها ذريعةً كانوا لها طالبين فاندفعَ بهم سيلُ المصاعب ، بل طوفانُ المصائب على تلك البلاد ، وظنّوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظنَ وهموا بما لم ينالوا . . .

لقد ركبوا الشَّطَطِ وغرَّهم ما وجدوا من تفرُّق الكلمة وتشتت الأهواء وهو أنفذ عوامِلهم وأقتلُها ، وماعلموا أنه وإن كان ذريعَ الفَتْك إلاّ أنه سريعُ العَطبَ ، وما أسرَعَ أن يتحوَّل عند اشتدادِ الخطُوب إلى عاملِ وَحْدَة يسدَدَ لقلوبِ المعتدين . .

---

( ١ ) كتبت هذه المقالة فى شهر مارس سنة ١٨٨٤ .

## من صيحات جمال الدين لإيقاظ الأمم الشرقية

كانت أول صيحات السيد جمال الدين التى أرسلها لإيقاظ الشرق بعد أن فارق بلاده فى شبابه — هى تلك الصيحة التى أزعج بها أهل الهند عند ما ألم ببلادهم فى طريقه إلى بلاد الحجاز وخشى الإنجليز أن يوقد نار الثورة فى هذه البلاد ، فأوعزوا إلى حكومة الهند بأن تأمره أن لا يطيل المكث فيها ، وأن يسارع إلى مغادرتها .

ولما رأى أن من حوله من الراجات والكبراء والعلماء ، لم يقابلوا هذا الأمر الظالم إلا بالبكاء ، التفت إليهم فى غضب وصاح فيهم هذه الصيحة المزعجة :

يا أهلَ الهند وعِزَّةِ الحق ، وسرِّ العدل ، لو كنتم ، وأنتم تُعَدُّون بمئات من الملايين « ذبابًا » مع حاميتكم البريطانيين ، ومَن استخدمتْهُم من أبنائكم فحملتهم سلاحها لقتلِ استقلالكم ، واستنفادِ ثروتكم — وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشراتِ الألوف! لو كنتم أنتم مئاتِ الملايين كما قلتُ ذبابًا !! لكان طنينُكم يُصمُّ آذانَ بريطانيا العُظمى ويجعلُ فى آذانِ كبيرِهم مستر غلادستون وَقْراً .

ولو كنتم أنتم — مئاتِ الملايين من الهنود — وقد مسخكم الله فجعلَ كلاًّ منكم سلحفاةً وخضتم البحر ، واحطتم بجزيرةِ بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر ، وعدتم إلى هندكم أحراراً — ثم رفع صوته وقال :

« اعلموا أنَّ البكاءَ للنساء ، والسلطان محمود الغزنوى ما أتى إلى الهند باكيًا بل أتى شاكا للسلاح — ولا حياةَ لقوم لا يستقبلون الموتَ فى سبيل الاستقلال بثغر باسم .

## ومن صيحاته لأهل الشرق جميعاً

### قد ضللتم عن رشدكم . . .

« إنكم قد ضللتم عن رُشْدكم ، وتهتم فى بَيْداء غوايتكم ، وما يقومُ لكم دليل فى تقاعسكم عن الذَّوْد عن أوطانكم ، ولقد غلب عليكم الجبن ، واستولى عليكم الضَّعف ، واضعف جنانكم الخوف والخشية ، ألا ترون أنَّ كل أمرٍ

صعب عند الشروع فيه ؟ أفلا تشعرون أن صعوبةَ المسالك بمقدارِ عظمَ المقاصد ؟ وأن الراحة محفوفةٌ بالمشاقّ ، وأن أفضل الأعمال أحمزها[١] ؛ أفترضَوْن بالعبودية للأجانب والاستكانة للأباعد ، وإن موتَ المرء خيرٌ من بقائه فى هذه الدنيا مع قلة مدّتِها وسرعة زوالها ، وما لا يملكُ من الأمر شيئًا ! أتظنون أن هذا التعلل يدفع عنكم غضب ربِّ الجنود ؟ لا وحقِّه ، إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم وأموالكم لا تنالون منزلةً لديه ، ولا تجدون مخلصًا من سخطه ، وتبقون فى ذلِّ العبوديّة ، ما دامت الأرضُ باقية — وكلّ عذاب دونه لحقير — فتشجّعوا وثبتوا أقدامكم ، وسكّنوا رَوْعَكم ، واعلموا أنّ الظفر مقرونٌ بالصبر ، وأيقنوا أنّ الراحةَ والسعادة فى أثرِ المشقة ، وأن سُنّة الله قد جرت من الأزل ، أن لا ينالَ الإنسانُ مرغوبَه إلاّ بعد التعب ، فلا تقدموا هذه الحججَ الداحضة ، ولا تظهروا الفشلَ فى طلب حقوقِكم ، ولا تتسربلوا بالجُبْن ، فإنّ كلّ جبان محروم ، فاسعوا فى اتفاق كلمتِكم واجعلوا صدوركم مِجَنًّا لسهام أعدائكم ، مُجتدين فى خَلاص بلادِكم ، واعلموا أن الأمم الغابرة والحاضرة ( ما نكست ) رقابها ، ولا كسرت أطواق العبودية إلاّ بتحملِ المشاقّ والخوض فى غمرات الموت .

## أيها الأجداد الأمجاد !

أين أنتم أيها الأجداد الأمجاد ، القوّامُون بالقسْط ، الآخذُون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمّة ، ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفُكم من بعدكم — وما أصاب أبناءكم ومن ينتحلُ نحلتكم ؟

انحرفوا عن سُنّتكم ، وحادوا عن طريقتِكم ، فضلوا عن سبيلكم !

استبدلوا كلّ رذيلة بفضيلة وأتوا على كل أمر لله بعكسه ، نبذوا حكمةَ الدين واتباعَ شرع سيّد المرسلين ، تفرقوا فِرَقا وأشياعا !

أصبحوا من الضّعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا ، وتحترقُ الأكباد

---

( ١ ) أحمز : الأعمال أمتنها اه . من القاموس زاد فى شرحه : وقيل أمضها وأشقها .

حزنًا، أصبحوا فريسةَ للأمم الغربيّة، لا يستطيعون ذَوْداً عن حوضهم ولا دفاعا عن حوزتهم، ألا يَصيحُ من برازخكم صائحٌ ينبّهُ الغافل، ويوقظُ النّائم ويهدى الضالّ إلى سواء السبيل ! ( إنا لله وإنا إليه راجعون ) .

نعم – إن للأرواح إشرافًا بهيا كلها الروحانية ، على ما تلبسُ من الأجساد الترابية فى هذه الدار الفانية ، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد – إذ الإمداد لا يكون إلاّ على قدر الاستعداد – فإذا أصغينا بالحسّ الروحى إلى ما نريد أن تناجينا به أرواحُ أجدادنا – لوجدناهم يحرقون علينا الأرَّم ، ويزعجهم الألم وينادوننا :

أيها الأحفاد ؟ تفتخرون بسيوفٍ لمعت بالمشرق ! – نعم !

ولقد تركنا لكم تلك السيوفَ مشحوذة فى أغمادِها – فهل تقلّدتموها ؟ وهل سللتموها فى وجهِ من اكتسح بلادَكم ، وضرب عليكم الذلّة والمَسْكنة ! تفتخرون بما فتحنا وتركناهُ لكم من الممالِك ، وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالِك ولا تخجلون ! ولا تحزنون ! وقد سلبتْها منكم الأعداء ، وأنتم فى مقاعد جنبكم وذلكم تنظرون – ولا تتحركون ولا تنهضون ، وحتى ولا تنطقون !

**أيها النائمون تيقظوا !**

« ألا أيها النّائمون تيقّظُوا! ألاأيها الغافلون تنبّهوا! يا أهلَ الشرف والناموس ويا أربابَ المروءة والنخوة، ويا أولى الغَيْرَة الدينية والحميّة الإسلامية ، ارفعوا رءوسكم تروْا بلاءً منصبًا على أوطانِكم ، وما أنتم ببعيد منه ولا بمعزلٍ عنه ، إن لم يكن أصابكم اليوم فسيصيبُكم غداً ! تساهلتم فى الذَّوْد عن حقوقِكم المقدّسة ، ولهوتم عمّا أضمرت لكم الحكومةُ الإنجليزية من الإهانة والتذليل وسوم الخَسْف ، وتعللتم بالأوهام ، فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، أصبحتم على شفا جرفِ المذلة ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل فى جحيم العبوديّة .

ألا إنّ وقتَ التّدارُك ما فات فالأرواحُ فى الأجساد والعقولُ فى الرءوس ،

والهم فى النفوس ، وأقدام العدو فى زَلَل ، وشؤونه فى خَلَل ، فاثبتوا ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْن إن كنتم مؤمنين ! ولا ترضَوا بالدنية خوفًا من المنيَّة ، واعلموا أن ثباتًا قليلاً ، وإقدامًا خفيفًا فى هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيشُ العرمرم . .

فالثّباتَ الثّباتَ ، وحذارِ حذارِ من التّوانى والتقاعد — هذا وقت يتقرَّبُ فيه المؤمنون إلى ربِّهم بأفضل عملٍ شرعى ، هذا وقت تنالُ فيه سيادة الدارين للعامل فيه خيرُ الدنيا وله فى الآخرة الحسنى وزيادة —

هذا وقت تظهر فيه ثقةُ المؤمن بوعد ربّه — هذا وقت يشكرُ فيه العامل على بسيط الأرض ويحمد له عمله فوق سبع سموات — ألا إنَّ الشيطان يخوف أولياءه، فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدُّنيا على الآخرة .

## داء الشرق ودواؤه

سئل السيد جمال عن دواء الشرق من علله فقال :

تطلبونَ الدَّواء ! والدَّاء دَفينٌ فى جسم الشرق وأبنائه ، مستحكمٌ منهم ، يعزّ ويتعذّرُ على الحكيم النطاسى أن يصف الدَّواء الناجعُ أو الشافى والواقى ، لاعتقاده أن المريض لا يتناولُه ، بل ربما يعملُ بعكس ما يشيرُ به الطبيبُ اليوم — ولو علم ذلك المريض أنَّ فى الامتناع من الدواء (الموت الزؤام) وهذه حالةُ الشرقيين فى مختلفِ الأقاليم .

دواء سريع التأثير

لدى أهلِ الشرقِ دواءٌ سريعُ التأثيرِ فى الشفاء ، لكنّهُ عظيمُ الخطر مفزعُ للجبناء منهم — وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم :

عِشْ عَزِيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمٌ بين طَعْنِ القَنَا وخَفْقِ البُنُودِ

• • •

obeikandl.com

لا يسلمُ الشّرَفُ الرّفيعُ من الأذى حتّى يُراقَ على جوانبهِ الدّمُ

هذا النّوعُ من الدواء توارثهُ الغربيّون وعملوا بكل معانيه، فتسنّى لهم به من العظامة والاستطالة والحكم فى الشرقين ما نراهُ محسوسًا مشهوراً، وبين أيدينا ومن خلفنا .

أمّا الشرقيّون — وقد وجدوا فى هذا الدّواء الشافى والواقى — مرارةً ومشقّةً وقتية وعناء فاطّرَحُوه ، ونبذوه جانبًا ، ورضوا من مجد باذخ وملكٍ مسيطر — ( بعير ووتد ! ) قد لا يملكونهما اليوم تمامَ الملك فحق ! عليهم قول الشاعر :

ولا يُقيمُ على ذُلٍّ يُرادُ بِـهِ إلاّ الأذلاّن عَيرُ والحى الوَتِـدُ

إنّ هذه الأنواعَ من المعالجات فى الشرق إذا كنت أرى منالها اليوم بعيداً — وذلك لسقوطِ الهمم وخَوَرِ العزائم وتفرّقِ الكلمة والاستسلامِ للخمول وبعد النفوس فى معظم الشرقيين عن مرامى العِزّة النفسية وحرمانهم لذّةَ ما تنبسطُ به الرّوح عند نوال المنعة القومية ، والحريّة الحقيقية — وما فى عزة الحاكم الفرد من الحَولِ والطّول بقوة مجموعه ( ولو كان صعلوكا ) على الجمهور المحكوم —

ذلك الجمهورُ الشرقىُّ اليومَ المستكينُ للمهانة والخاضعُ للقوةِ الموهومة التى يتخيلها هولا هائلاً ، أو غولاً آكلاً « إن الناس فى الموت من خوف الموت — ومن الذل من خوف الذل !

ثم أخذ يصف الدواء فقال :

أمّا وأنتم تطلبونَ دواء يسهلُ على الشرقيين تجرُّعُه فأقول :

## تربية جيل جديد

بلى : نحتاجُ إلى عمل جديدٍ نربى فيه جيلاً جديدا بعلم صحيح ، وفهم جديد ، لمعنى السلطان الأول على الأجساد والأرواح ( وهو الدين ) وجمع ماتشتت من الكلمة من أهل الأديان وتوطيدِ العزم على قبولِ الموتِ فى سبيل حياةِ الوطن .

يقومُ بذلك جمعيات [1] يتولَّى أمرَهَا أناسٌ يأخذون على أنفسهم الأبيّة عهداً، أن لا يقرعوا بابًا لسلطان، ولا يضعضعهُم الحدثان، ولا يَثْني عزمَهُمْ الوَعيد ولا يغرهم الوعد بالمنصب، وَ تلهيهم التجارةُ ولا المكسب — بل قوم يرون فى المتاعبِ والمكارهِ فى نجاةِ الوطن من الاستعباد — غايةَ المغْنَم — وفى عكسه — المغرم !

ولما سئل أين هؤلاء الناس ؟ أجاب :

يقولون الحاجةُ أمٌّ الاختراع وقال المصطفى (ص) « اشتدِّى أزمةُ تنفرجى » .

فالأزمةُ تلد الهِمّة — ولا رجاءَ من المستضعف إلاَّ إذا يئس ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق — ولا يظهرُ فَضْلُ الفجر إلاَّ بعد الظّلام الحالِك !

**أوشك فجر الشرق أن ينبثق :**

وعلى ما أرى قد أوشكَ فجرُ الشَّرْق أن ينبثِق، فقد أدلهمَّتْ فيه ظلماتُ الخطوب ، وليسَ بعدَ هذا الضيق إلاَّ الفَرَج ، سُنَّة الله فى خَلْقِه :

ومَهْمَا أدلهمَّ الخَطْبُ لا بُدَّ ينجلى
وأظلمتِ الدُّنيا فلا بُدَّ من فَجْرِ

نعم — لا بد لذلك النسيم الذى حمل معه أجزاء فردية الحياة والنشاط والنهضة — ومَرَّ على أعرق الأمم فى الجهل — ولما استنشقته هبَّت من رقادِها ودَّوختْ ممالكَ الأرض ، واستفتحتها ، وملأتها عَدْلاً —

ذلك النسيمُ الذى جعل فى العِراق هارونًا ومأمونًا ، وفى الشام والأندلس وسائر المشرق ، دولا ودهاقين ودُهاةً ، ومن فحولِ العلماء جهابذة وأساطين .

---

(١) كان السيد لا يثق فى حكومات دهره ولا يعتقد أنها تعمل عملا صالحاً .

أكرّر وأقول « نعم » لا بُدَّ لذلك النسيم بعد أن سرى عن تلك الممالك والبقاع فهبطت من مهاوى الذل ، وأصبح نشاطُها خمولاً ، وعلمُها جهلاً ، وملكها أثراً بعد عَيْن — لا بُدَّ وأن يعيد الكرّة ويمر على الشرق مرة أخرى ، فتنشط له العقول، وتقوى به العزائم ، وينفتحُ لاستعادةِ المجدِ المجال، وتظهر من زوايا الخمول فحول الرجال ، إن شاء الله[1] .

---

(١) ولقد تحققت هذه البشرى التى تنورها « جمال الدين من بين أستار الغيب ببصيرته النافذة ، واستشفها بحسه الروحى ، فانبثق فجر الشرق بعد أن غاب عنه قروناً طويلة ، وعاد اليه النسيم الذى حمل الحياة والنهضة إلى الشرق فى عصوره الزاهرة — فاستيقظ من غفلته ، ونشطت هم أهله وقويت عزيمتهم واستردوا حقوقهم من بين أنياب من كانوا قد اغتصبوه منهم . وأصبحت أمه بفضل يقظتهم بين سائر الأمم محررة عزيزة — وقد كان انبثاق نور هذا الفجر من أفق مصر ثم لم يلبث هذا النور الباهر أن استطار وانتشر حتى عم آفاق الشرق جميعاً .

وإن روح جمال الدين لترفرف اليوم فى سماوات الشرق كلها مزهوة مسرورة — أن تحققت آمالها التى كان طوال حياته يجاهد فى سبيلها .

* تنور النار تبصرها .

# المراجـــع


| | | |
|---|---|---|
| جمال الدين الأفغانى | : | رسالة الرد على الدهريين |
| جمال الدين الأفغانى | : | " العروة الوثقى " |
| الإمام محمد عبده | : | " العروة الوثقى " |
| | : | تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده |
| محمد المخزومى | : | خاطرات جمال الدين |
| لوثروب وتعليقات شكيب أرسلان | : | حاضر العالم الإسلامى |
| تشارلز آدمس | : | الإسلام والتجديد فى مصر |
| بلانت | : | التاريخ السرى للاحتلال |
| عبد القادر المغربى | : | جمال الدين الأفغانى |
| محمود أبو ريه | : | جمال الدين الأفغانى |
| بروكلمان | : | تاريخ الشعوب الإسلامية |
| فيليب حتى وأدوارد جورجى وجبرائيل جبور | : | تاريخ العرب المطول |
| عبد الرحمن الرافعى | : | عصر إسماعيل |
| | : | جريدة السياسة الأسبوعية |